اقرأ

تصدر أول كل شهر

[٤٨٥] - مارس - ١٩٨٣



رئيس التحرير أنيس منصور







عبـاس خضر

هؤلاء عرفتهم



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

كلمة

لا أقصد بهذه الفصول دراسة كاملة لهؤلاء الذين سعدت بمعرفة أشخاصهم . قد يكون بها بعض الملامح الدراسية من بعض النواحى ، ولكن القصد إنما هو تصوير احتكاكى بهم وانعكاسهم على نفسى .

عباس خضر



طه حسين

حوالى سنة ١٩٥٠ – على ما أذكر – كان طه حسين باشا على أبواب الوزارة : وزارة المعارف – كما كانت تسمى إذ ذاك وزارة التربية والتعليم – وكنت أكتب الباب الأسبوعى فى مجلة الرسالة : « الأدب والفن فى أسبوع » وأسرفت كما أسرف كثير غيرى فى مدح الرجل إسرافا أكثر من اللازم : « الواقع أن وجود كاتب معروف بأفكاره التقدمية الشعبية بوزارة المعارف التى كانت تنوء بالمعوقات للمعارف كان داعى استبشار وتفاؤل ، ولكن الحق الصريح أن مسألة الإسراف ، أو إسرافى أنا كما أعرفه فى مدح الوزير ، كان فيها عنصر شخصى . . كنت موظفاً مبتدئاً فى تلك الوزارة وكانت نفسى تعانى الكثير مما يرفع الموظف وينيله الترقيات والدرجات الاستثنائية ، ولعل طموحى كان فى الناحية الأخرى التى يركض فيها القلم ، أو قل إنى فلاح خشن الطبع لا يروق الرؤساء ومن يملكون الأمور ، وكان

بى عزوف عن موارد السياسة الحزبية .

فوجدت فى طه حسين الأديب سلماً للرقى لائقاً بمثلى . . كان ذلك فى أعماق أراه الآن وإن كان يغيم علىّ فى ذلك الوقت ، فى فورة من الشباب اختلط فيها الباطل بالصحيح .

وأذكر أن كاتباً عراقياً أخذ علينا – نحن المصريين – أن نهلل ذلك التهليل وقال ما معناه : على رسلكم يا قوم . . أية وزارة وأى منصب وأى لقب يرفع شأن طه حسين ؟ إن لقبه الخالد ليس صاحب المعالى وإنما هو « صاحب الأيام » .

خجلنا قليلاً ، ولكنا استمرأنا ما كنا فيه ، كما نحن دائماً نحب أن يكون لنا من نكيل له الكيل الجزاف وفى الوجه الآخر من لا نراه . .

وكان يسيل لعابى ما يتردد من أن طه حسين بحر متلاطم الأمواج فى الإفاضة على من يحب من الأشخاص ، كما هو بحر فى العلوم والآداب . والدليل على ذلك فلان وفلان ممن رقاهم ومنحهم أعلى الدرجات .

ولكنى لم أكن أعرف طه حسين شخصياً ، ولم ألقه قط إلا فى كتابته وإنتاجه الأدبى . وتساءلت فيما بينى وبين نفسى : ترى ما صدى ما أكتبه عنه فى نفسه ؟ وهل أزال أثر كتابات أخرى سابقة سخرت منه فيها ، وكان منها نص عثرت عليه فى كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ يتضمن تكراراً كالذى يصنعه كاتبنا فى كتابته وكان يكثر منه جداً فى ذلك الحين . وقال الجاحظ فى ذلك التكرار : إن هذا من العىّ . . أوردت ذلك النص دليلاً على أن تكرار طه حسين من العى . .

واتصلت تليفونياً بمنزل الوزير طه حسين ، فرد على السكرتير الخاص . وقلت إنى أريد مقابلة الوزير لإجراء حديث أدبى صحفى لمجلة الرسالة . وجاءنى بعد هنيهة صوت السكرتير يحدد لى الميعاد .

وفى الموعد بالضبط ، إذ كانت المواصلات العامة لم تفسد بعد ، كنت بمنزله

القديم فى الزمالك ، وكان هو فى الانتظار بحجرة المكتبة .

تزودت منه للرسالة بمحصول طيب ، أذكر منه إجابته على سؤال : ماذا فعلت أو ماذا ستفعل للأدب والأدباء وأنت وزير؟ قال : «إنى أعد للأدباء جيلاً يقرأ لهم» ، أكانت هذه من نياته الحسنة فيما يدعو إليه ويعمل له من أن يكون التعليم كالماء والهواء متاحاً للجميع . ولكن – غفر الله له – لم يتحقق ذلك ، فقد انتشر التعليم ولكن لم يوجد قراء للأدب :

قال لى : لقد تزودت للرسالة بما فيه الكفاية ، وأريد أن أسألك عن أحوالك . . وأجبت ، فأبدى دهشته من أن أظل فى الدرجة السادسة – درجة التعيين لحملة المؤهلات العليا – سبع سنين ، فسررت جداً وقلت فى نفسى : هذا بشير طيب . وسرنى أكثر قوله لى : إنى أقرأ ما تكتب وأحب أن توالى هذا النقد وخاصة فيما يتعلق بوزارة المعارف ووزير المعارف .

سرنى ذاك وذلك وأنا مخدوع بالكلام الحسن الذى لم أر له تطبيقاً بعد . . أما الدرجة فقد مكثت بها واقفاً فى «الطابور» حتى وصلت إلى الخامسة من «الطابور» . وأما النقد فقد تبين لى أن المقصود به دوام الثناء ، وعلى الأقل المدح بما يشبه الذم !

وجدت شيئاً فى تلك المقابلة لم أحمده له فيما بعد . إذ قدم لى سيجارة ، فاعتذرت بأنى لا أدخن ، فقال فى لهجة لم أدرك تماماً أهى جدية أم هزلية كيف تكون أديباً ولا تدخن ؟ خذ ، عفر . وأردت بدافع داخلى ساذج أن أثبت أنى أديب ، فأخذت وعفرت . وعقب خروجى من عنده اشتريت علبة سجائر ، وجعلت أعفر حتى دخت . . . فرميت بقية العلبة وأنا أقول وقد زايلتنى السذاجة : لا ، إنى أديب بدون هذه «الدوخة» التى كان يمكن احتمالها وأنا صغير أحاكى الكبار وأريد أن أكون رجلاً . . ولم أكن إذ ذاك استطيع أن أشترى السجائر ، فلما

كبرت واستطعت كنت قد عقلت .

بقيت فى الدرجة السادسة ، وأعلن الوزير – فى تصريح من تصريحات الوزراء الخالدة – أنه لن يتبع طريقة الاستثناء التى كان يتخذها الوزراء ذريعة لمنح الأتباع والأصهار وسائر السائرين فى الركاب . فقلت لا بأس – المساواة فى الظلم عدل إن صح أن يكون حرمانى من الدرجة الاستثنائية ظلماً ، وماذا علىّ إن بقيت فى « الطابور » ؟ ولكنى لحظت بعد ذلك أن فلاناً أخذ درجة استثنائية وآخر أخرى . . رأيت أن أريح مخى من ذلك وخاصة أن « مهرى » صغير لم يدرب على الجرى فى حلبة السباق التى تجرى فيها أفراس هؤلاء المدربة على معرفة من أين تؤكل الكتف ثم عرفت أن تصريحات الوزراء ليست نصوصاً مقدسة .

وقلت لنفسى كما أقول دائماً : عد عن ذا ، فلك فى ميدان الأدب والقلم ما يغنيك عن تلك الأشياء . ولم أجد فى هذا الميدان ما يغنى ، ولكن الأمل لم ينقطع ولن . .

وصرفت همى إلى القراءة والكتابة ، وخاصة أن العمل بإدارة الثقافة ما هو إلا بطالة مقنعة ، وكأننا معينون عن طريق توزيع القوى العاملة ، و« العاملة » مجاز قرينته الضدية . . .

ولكننا فوجئنا بالمدير العام « الدكتور سليمان حزين » يحتم علينا « التواجد » فى المواعيد الرسمية ، ومع هذا لا عمل . . ضقنا ذرعاً بهذه « الحنبلة » العقيم وبأشياء أخرى . . . تذكرت ما قاله لى الوزير طه حسين : أن أستكثر من النقد وخاصة فيما يتعلق بوزارة المعارف « ونقدت ما أراه نقداً لاذعاً تناول شخص الرئيس وتصرفاته . . وخيم السكون المشفق علىّ من قبل الزملاء . .

وذات يوم يصلنى استدعاء تليفونى لمقابلة معالى الوزير ، عرفت فيما بعد أنه حدث ما يأتى :

عرض الدكتور سليمان حزين على الوزير أمراً بنقلى مدرساً للغة العربية بمدرسة السعيدية الثانوية ، والمفروض أننا لانئذون من التدريس بإدارة الثقافة ، وكان سليمان حزين أثيراً لدى طه حسين ، يعرض عليه الأمور مباشرة ، أى عن غير طريق وكيل الوزارة كما يقضى بهذا الروتين .

قال لى صديقى محمد سعيد العريان أحد أساطين مكتب الوزير ، قال إنه قال للوزير هامساً هذا المدرس هو عباس خضر «بتاع الرسالة» .

هز الوزير رأسه ووضع يديه بعضهما فوق بعض على فخذه ، كعادته عندما يتنبه لأمر ، قال : دع هذا الأمر يا دكتور حزين الآن ، وأرسل لى عباس خضر .

لم يرسلنى سليمان حزين ، وإنما بلغت الاستدعاء من مكتب الوزير .

قال لى طه حسين : أنا قرأت ماكتبته عن الدكتور حزين (بضم الحاء) .

وسكت برهة قطعها قائلاً : أنا أعرفكم يا أدباء الثقافة ، الواحد منكم لا يذهب إلى عمله إلا فى الساعة الحادية عشرة وينصرف فى الثانية عشرة ، ثم قال بلهجة حاسمة : أنا قررت أجيبك هنا . . تشتغل معى ، وسأريك كيف يكون الشغل ، ستكون كسائر العاملين معى ، مساكين العاملون معى ، يتعبون حقاً . .

وارتفعت اللهجة الحاسمة : إعلم أنك أصبحت السكرتير الصحفى لوزير المعارف ، أنت الصلة بينى وبين الصحافة ورجال الصحافة .

وقيل لى : يجب أن تلبس طربوشاً وتزرر الجاكتة حيثما تدخل على معالى الوزير . وكنت قد تخلصت من الطربوش فى السودان ، انتقلت منه إلى القبعة الفلينية الصفراء التى تحمى الرأس من حر الشمس ، فلما عدت إلى القاهرة انطلقت برأسى عارياً .

أضطررت أن أشترى طربوشاً وأضعه فى المكتب بالوزارة ولا ألبسه إلا عند الدخول على الوزير . إنه - كما عرفت - يبصر كل شىء بعين سكرتيره الخاص

الذى يصف له الداخل وكيف دخل و . . . إلخ ، فكأنه يراه ، وهو يهتم بمثل هذه الشكليات ، بل هى عنده جواهر لا شكليات . .

وهو – كما عرفت أيضاً – يغضب جداً ممن يشير إلى كف بصره أو يتصرف معه على أنه كفيف البصر . وقد حدثنا فى كتابه « الأيام » أنه كان يحزن ويثور عندما يؤنبه أحد المشايخ فى الأزهر بقوله : يا أعمى . ولا أنسى يوماً تظاهر فيه بعض المدرسين خارج مكتبه بالوزاره ، إذ رفض أن يقابلهم ، فهتفوا : « ليسقط الوزير الأعمى » فغضب غضباً شديداً ما رأيته فى مثله ، وخرج إليهم منفعلاً أشد انفعال وقال لهم فيما قال : « إنى أحمد الله على أنى لا أرى وجوهكم ! » .

لما انتهت مدة خدمتى بمكتب الوزير طلقت الطربوش طلاقاً بائناً لا رجعة فيه ، قطعته ورميته فى سلة المهملات ، ولكنه لم يدعنى بعد ذلك . بل ظل فى أحلامى غير السعيدة ، يراودنى فى أشباه الكوابيس ، ويدور صراع بينى وبينه لا ينتهى إلا بالاستيقاظ . .

أخذت المسألة جداً فى أول الأمر ، وكنت أبكر فى الحضور ، و « أتواجد » فى مكتبى دائماً . ولكنى شيئاً فشيئاً عرفت أن المسألة ليست جدية ، أو قل إنى لم أعرف أن أجعلها جدية بحيث أستفيد من هذا المركز ، بل على العكس من ذلك كنت « عبيطاً » جداً والواقع أنى كنت سعيداً فى أعماق نفسى بهذا الفضل ، وما كان أشد ضيقى بل احتقارى لهؤلاء الساعين إلى مودتى ، منهم من عرفت قديماً ولم أرهم من قديم . ومنهم من لم أعرف وهم الآن يخطبون ودى . ومع هؤلاء وهؤلاء لم أشعر أنى – أنا – موجود ولكن الموجود والمقصود هو السكرتير الصحفى لمعالى وزير المعارف . .

لم أعرف من أين تؤكل الكتف . . أمر واحد استفدته من وجودى هناك وصفتى تلك ، كنا نسكن فى حى السيدة زينب . وانتقلنا إلى حى شبرا ، وكانت

القبيلة التى ارتحلت يتكون معظمها من ابنتين فى المرحلة الابتدائية وولدين فى روضة الأطفال « نظام قديم » ، وكان المسكن الجديد بجوار مدرسة روض الفرج الإبتدائية للبنات وروضتها الملحقة ، وذهبت إلى الناظرة ، وكلمتها فى نقل الأولاد عندها – فى خلال العام الدراسى – فحلفت بأغلظ الأيمان أنه لا يوجد عندها مكان لطفل فى أية غرفة من غرف الدراسة ، وكانت المدارس قد اكتظت بالأولاد وجعل العلم يتدفق إلى من بالداخل كالماء والهواء ، ولكن فى الخارج وفى الهواء الطلق كثيرون لا يجدون نسمة من علم . الحصول على دجاجة من الجمعية الآن أو على بضعة أمتار من الكستور أسهل بكثير من دخول المدرسة إذ ذاك .

وقيل لى فى مكتب الوزير : مالك مهموماً ؟ قلت : الأولاد ! قالوا بسيطة . وكتب أمر من معالى الوزير بقبول الأولاد جميعاً فى تلك المدرسة ، وختم الأمر بخاتم الوزير . وحمله ساع يركب موتوسيكلاً ، وذهب به إلى المدرسة فى الحال . وفى اليوم التالى ذهب الأولاد إلى المدرسة ، فقالت لهم الناظرة : تعالوا يا حبايبى يا من أنتم من طرف معالى الوزير !

كنت فى تلك الفترة قد اشتغلت محرراً بجريدة الأهرام ، وخففت الكتابة فى مجلة الرسالة إذ جعلت الباب الذى أكتبه كل أسبوعين وجعل الزيات أجره نصف أجر ، وأذكر بهذه المناسبة أن الزيات كان يرحب بنشر كل ثناء على الوزير طه حسين ، وكتب هو افتتاحيات فى ذلك ، وكان صديقه وقد جاءت ولايته للوزارة عقب حملة ضارية عليه – أى على الزيات – وعلى الرسالة من لدن « شلة مجلة الثقافة ولجنة التأليف » إسماعيل القبانى وعبد الرزاق السنهورى وقد توليا وزارة المعارف . وكانت هذه « الشلة » وعلى رأسها أحمد أمين تنظر إلى الزيات وإلى مجلته بعيون فيها أكثر من الشذر . قطع اشتراك الوزارة فى الرسالة ، وكانت مشتركة فى عدد كبير لمكتبات المدارس ، وكتب أحمد أمين تقريراً رسمياً عن كتب الزيات

يتضمن أنها غير صالحة للتقرير فى المدارس لأن أسلوب الزيات متكلف غير مسترسل مما لا ينبغى أن ينطبع به الناشئون فى المدارس .

كان الوزير طه حسين يطلبنى فى المكتب فلا يجدنى ، ثم لا أجد صدى سيئاً لهذا . وتبين لى أنه لا يهمه منى إلا أن أكون واحداً من الذين يدافعون فى الصحافة عن « دولته » ويحمون حدودها . وقد صرت محرراً فى الأهرام ، فلم يعد الأمر مقصوراً على المساحة المحددة لمجلة الرسالة فى رقعة القراء الواسعة .

حدث له حادث بسيط ، ولكن الدنيا اهتزت له ، لأنه هو نفسه أصبح يشغل الناس ويملأ الدنيا . كان يهبط أو يصعد على السلم فالتوت رجله ووقع ، ثم اعتكف ولم يخرج ، وطلبنى رئيس قسم الأخبار بالأهرام الصديق كامل الشناوى ، وقال لى : الدكتور طه حسين صديق الأهرام ، اكتب عنه نصف عمود ، اسأل بالتليفون عن حالته ، ومن زاره من الكبراء ، ومن عالجه من الأطباء . . . . . إلخ ثم اكتب متمنياً له الشفاء باسم الأهرام .

رد علىّ السكرتير الخاص « فريد شحاته » وما إن عرف أنى أنا حتى صاح فى لهجة تأنيبية : « أنت فين يا أستاذ ؟ هو أنا حاشتغل سكرتير خصوصى ولا سكرتير صحفى ! » قلت له فى هدوء : اسمع ، الذى يكلمك الآن ليس السكرتير الصحفى لوزير المعارف ، وإنما هو يتكلم باسم الأهرام ، دع هذا الكلام وأجبنى فقط عما أسألك عنه : من زار الباشا اليوم . . . إلخ .

يا لها صاحبة الجلالة الصحافة . . ذات السحر والسلطان ، حتى فى أشد الأوقات والأزمات ! أعقب ذلك حريق القاهرة ، ومنع التجول فى العاصمة مساء ، وأنا أعمل فى الجريدة حتى منتصف الليل ، وأمر كامل الشناوى أن توصلنى إلى منزلى سيارة من الأهرام ومعها « تصريح صحافة » فكان جنود الجيش المرابطون لمنع التجول يعترضون طريقنا مصوبين إلينا بنادقهم هاتفين بأعلى صوت وأشده :

قف ، من أنت ؟ نحن أبناء صاحبة الجلالة ، فنكس سلاحك أيها الجندى ودعنا نمض . . .

احترقت القاهرة ، وذهبت الوزارة وفيها صاحبي ، وشعرت بأنى قلق فى مكانى .

وفجأة ورد إلىّ أمر بالنقل إلى المدرسة الخديوية الثانوية ، وماكان يخيفنا شيء مثل شبح التدريس ، فنحن - الأدباء وأدعياء الأدب - مستريحون فى الوظائف الأخرى شبه متفرغين ، وعلى هذا نستطيع القول إن التفرغ قديم وإن كانت قد نظمته حديثاً وزارة الثقافة .

فزعت إلى صاحبى الدكتور طه حسين ، فقال لى : إلى أين ؟ قلت : إلى مكانى فى إدارة الثقافة . قال : هناك الدكتور حزين وهو لا يريدك . قلت : فليكن مجمع اللغة العربية . قال : لا بأس . فلتعد إلى لجنة ديوان ابن الرومى هناك ، وكان هو رئيس هذه اللجنة ، وكلم محمد رفعت باشا وزير المعارف إذ ذاك ، فنقلت إلى المجمع .

كنت قد جربت لجنة ديوان ابن الرومى وعرفت أن العمل معها كلا عمل . . . وإذا اجتمعت ففى المساء ، أما فى الصباح فلا وجود لها ، فكنت أذهب «لأدردش» مع محمد عبد الحليم عبد الله وأستمع إلى ما جد من قصصه ونحن نتشمس شتاء على سطح المجمع حيث الحجرة التى خصصت لى أو لديوان ابن الرومى الذى لم ير النور . .

وذهبت مرة لزيارة طه حسين فى منزله ، وقد توطدت صلتى به . فقال لى : إن هناك شكوى منك ؟ قلت : ممن ؟ قال : منى قلت : لماذا يا معالى الباشا ؟ قال إنك لا تذهب إلى عملك فى لجنة ديوان ابن الرومى . قلت : يا باشا أتسمح لى أن أتكلم بصراحة ؟ قال : قل . قلت : إنى موظف لا يكفينى مرتبى أنا وعيالى

وما زلت فى الدرجة السادسة ، فأنا مضطر إلى العمل مساء فى جريدة الأخبار ، وكنت قد انتقلت إليها فى جمع من الأهرام على رأسه كامل الشناوى وفى جملته أنيس منصور وكمال الملاخ وعلى حمدى الجمال . قلت لطه حسين : واللجنة يا باشا تجتمع مساء ولا أستطيع حضورها . ويبدو أنه انتبه انتباهاً خاصاً لعبارة «وما زلت فى الدرجة السادسة» فقال لى برقة : من أجل خاطرى تعال يوم الثلاثاء فأنا ذاهب إلى هناك . وفى مفتتح الاجتماع قال : يا جماعة ، دعوا عباس فى حاله ، إنه «جورنالست» مشغول ، أليس كذلك يا عباس؟ قلت : نعم يا باشا . قال : يا أخى ، أنت متبجح ، أتعتذر عن عملك فى الحكومة بعمل آخر؟ قلت : أنت تعلم يا باشا . وقال أعضاء اللجنة : آمين يا معالى الباشا . .

وكانت الألقاب قد ألغيت فى عهد الثورة ، وبرغم ذلك ظل كل من يخاطب طه حسين لابد أن يخاطبه قائلاً يا معالى الباشا أو يا باشا على الأقل ، لأنه كان يريد ذلك ، إذ يعتقد أنه حق مكتسب ليس لأحد أن يحرمه منه ، وقد ظل حياته جاهداً حتى وصل إليه . ويدل على ذلك ما حدث فى هذا الاجتماع : اجتماع لجنة ديوان ابن الرومى ، إذ استدعى الأمر فى الموضوع الذى كانت تنظره اللجنة أن يكتب خطاب إلى رئيس المجمع أحمد لطفى السيد ، وكان طه حسين وفياً لأستاذيته وحريصاً على إيفائه حقه من التقدير ، فأملى الخطاب بادئاً بالديباجة القديمة : «حضرة صاحب المعالى أحمد لطفى السيد باشا» وقال فى تحد لقرار إلغاء الألقاب : إنى مستعد أن أدفع جنيهاً أو أكثر لا قرشاً واحداً ولا أجرد لطفى باشا من لقبه ! وكانوا يغرمون من ينسى ويلقب آخر قرشاً صاغاً حتى يتنبه ولا يعود لمثلها .

وقد حدث فى مسألة أخرى : هل هو مؤمن بالله ورسوله ؟ كنت أذهب إلى سماعه وهو يحاضر فى الجمعية الجغرافية أو قاعة «يورت» بالجامعة الأمريكية فكنت ألحظ أنه ينطق اسم «محمد» مجرداً أى دون أن يسبقه لقب أو يلحقه دعاء مثل

ﷺ . كان يصنع فى ذلك صنيع المستشرقين غير المسلمين وثار جدل كبير معروف حول كتابه «الشعر الجاهلى» ولما عرفته شخصياً لم أر منه ما يدل على تدين برغم مؤلفاته الإسلامية المعروفة كنت أراه يفطر فى رمضان ، ولم أره قط يصلى أو يهتم بصلاة ، ولم يكن حديثه فى المجالس يتناول أمراً من أمور الدين بطريقة تصديقية . وإن كنت قد سمعته يوصى أعضاء المجلس الأعلى للتعليم وهو وزير أن يقرروا على طلبة المدارس كثيراً من النصوص القرآنية ويقول إنه يدين للقرآن بالكثير.

ولعل ذلك راجع إلى الناحية اللسانية فقط .

وبرغم ذلك : ما أعظم مؤلفاته الإسلامية . والله أعلم .

عباس محمود العقاد

قبل أن أقرأ أدباً للعقاد سمعت به ، ثم قرأته كاتباً سياسياً جريئاً يشتم « أجعص جعيص فى البلد » حتى الإنجليز العتاة لا يسلمون من قلمه الجبار ، وقال المتحدثون فى المجالس وأنا أصغى إليهم بإكبار : إن سعد زغلول زعيم الأمة هو الذى أطلق عليه لقب « الجبار » لشدته فى منازلة الخصوم : خصوم الوطن وخصوم الوفد الذى يمثل أغلبية الأمة ويطالب بالاستقلال التام أو الموت الزؤام .

كان العقاد – أو ذاك فى نظرى – بطلاً خرافياً ، يحتل فى نفسى مكانة أى بطل أسطورى ، وابتدأت أقرأ مقالاته باهتمام وانتظام فى جريدة « كوكب الشرق » عندما بدأت العمل الصحفى أو التمرين الأول على هذا العمل فى تلك الجريدة وأنا طالب فى المرحلة الثانوية . كان من أهم مكاسبى المادية أن أحصل على نسخة من الجريدة يوميا بالمجان ، وكان ثمنها خمسة مليمات . كان مقال العقاد أول شىء أقرؤه ،

وأقرؤه بلذة واستمتاع ، وكانت هذه القراءة أول انطباع فى نفسى للكاتب الكبير ، قل إنه انطباع أدبى أو انطباع سياسى ، سمه ما شئت المحقق عندى أن تلك المقالات كانت شيئاً عظيماً ومتعة يومية لا تعدلها متعة . وكان العقاد أحياناً يكتب مقالات أدبية أو يترجم قصصاً قصيرة إلى جانب الكتابة السياسية ، كله عظيم . . عظيم .

من المقالات التى أذكرها مقالة كتبها عن زيارة ابن رئيس الوزراء «إسماعيل صدقى باشا» لخزان أسوان ، سافر فى ديوان خاص بالقطار على نفقة الحكومة وقالت جريدة «الشعب» الناطقة باسم حزب الشعب الذى يرأسه إسماعيل صدقى - قالت فى تبرير ذلك : إن ابن الرئيس مهندس ، وهو يزور الخزان لأغراض فنية . . كتب العقاد المقال بعنوان «بسلامته مهندس !» وجعل يسخر من رئيس الوزراء وابنه سخرية ممتعة . . تذكرت ذلك أخيراً عندما سمعت توفيق الحكيم يقول لنا فى لجنة القصة بالمجلس الأعلى : إن العقاد عندما كان يترك نفسه على سجيته فى الكتابة يكون ظريفاً جداً . وشرح الحكيم رأيه هذا بأن العقاد كانت لديه عقدة «الشهادة» التى لم يحصل عليها من المعاهد التعليمية ، فكانت تملكه نزعة التعالى التى يريد أن يثبت بها أنه أعظم من الحاصلين على الشهادات والدارسين فى الجامعات ، فتبعده هذه النزعة عن السجية الظريفة التى جبل عليها ، وفى قليل جداً من الكتابات غلبته هذه السجية فأتى بالظريف من الكلام .

وتعاظمت صورة الكاتب البطل الجبار فى نفوسنا عندما قال فى مجلس النواب ، وكان عضواً فيه إن الشعب مستعد أن يسحق أكبر رأس فى البلد إذا حاول أن يعطل الدستور .

ولما قامت عليه قيامة جريدة «الشعب» فراحت تتساءل : من يقصد العقاد بأكبر رأس فى البلد ؟ كتب فى «كوكب الشرق» مقالاً افتتاحيا أكد فيه ما قاله فى البرلمان وقال إننا نقولها ونكررها ونؤكدها !

وكانت قلوبنا تخفق عندما حكم عليه بالسجن بتهمة العيب فى الذات الملكية المصونة . . وكم أكبرناه عندما نشر أن وزير العدل فى حكومة صدقى كان فى زيارة السجن ، فلما رأى العقاد حياه سائلاً عن حاله ، فلم يرد عليه العقاد ولم يلتفت إليه . .

وكنت أقرأ مقالات كان يكتبها عبد الله حبيب وتنشرها « الأهرام » فى الصفحة الأولى تحت عنوان « سجيننا اليوم » ويأتى فيها بشذرات من أدب العقاد محيياً فيها الأديب الحر المسجون !

وكذلك كان . . الأهرام الجريدة المحايدة التى تميل إلى إرضاء الحكومة تفسح لأديب أن يكتب عن أديب سجنته الحكومة القائمة فى تهمة تمس الملك ! كان ذلك إعزازاً وتقديراً للأدب والأدباء من صحافة ذلك الزمن .

وفى هذه الأيام حين أكتب هذا تنشغل صحفافتنا بأمر خطير . . هو خطبة الممثل عمر الشريف لممثلة جنس ! وتتبارى الأقلام الصحفية فى حقيقة هذه الخطبة ، وتعلن مجلة كبيرة عن نفسها بأن بها تحقيقاً عن هذا الموضوع !

وصرت أقرأ لعباس محمود العقاد فى مؤلفاته ومترجماته ، ولعل كتاب « ساعات بين الكتب » وكتاب « عرائس وشياطين » كانا من أحسن ماقرأت له فى ذلك الحين .

ولكن صورته بدأت تهتز فى نفسى عندما قرأت له فصولاً فى النقد تناول فيها بعض المعاصرين له من الأدباء بالتجريح وبالشتائم ، كنت أطرب لشتائمه للوزراء والكبراء ، ولكنى لم أسترح إلى تجريحه وتحامله على الأدباء ، ويوماً قرأت له هجوماً متغنياً على مسرحية « قمبيز » الشعرية لأحمد شوقى فقلت فى مجلس الأصدقاء : لقد بدأ العقاد « يهجص » فقال لى صديقى شوقى أمين : أنت الذى بدأت تقرأ له ! وكانت هذه نكتة ظريفة قهقهنا لها ، ولكنها لم تكن حقيقة ، فأنا أقرأ للعقاد من زمان .

والواقع أن إعجابى بالعقاد لم يشمل حملاته النقدية ، فقد كنت أرى تحامله الظالم فيدفعنى نحو المنقود ويجعلنى أقف فى صفه : صف المنقود المظلوم . ولم تكن تعجبنى كذلك الحملات المماثلة عليه . مثلاً نشبت فى أواخر حياته معركة ضارية بينه وبين أمين الخولى تبادلا فيها أقذع الشتائم . . كنت أقرأ لكل منهما وأنا ساخط «قرفان» لا أحب هذا النوع من النقد .

وسمعت عن كتاب ذائع الصيت اسمه «على السفود» قيل إن مصطفى صادق الرافعى شوى فيه عباس محمود العقاد . والكتاب مغفل ليس عليه اسم المؤلف وإن كان معروفاً أنه الرافعى . فلما وقع فى يدى وقرأته وقرأت فيه شعرت «بالقرف» من هذا النوع من الكتابة المفحشة ، وأدركت لماذا لم يضع المؤلف اسمه على هذا الكتاب الذى يزرى بمؤلفه . . . وشعرت أنى مع العقاد «المشوى» على السفود .

فى ذلك الوقت : وقت أن قرأت كتاب «على السفود» كان العقاد قد انشق على الوفد وراح يكتب مقالات حامية ضد زعيمى الوفد مصطفى النحاس ومكرم عبيد ، وكنت أعمل فى مجلة وفدية اسمها «الكرباج» وطلب إلىّ أن أكتب ضد العقاد ففعلتها . . بدافع الشعور العام الوفدى من جهة ، ودافع شهوة إعمال القلم فى البدء ، ودافع «أكل العيش» من جهة أخرى . . . واستعنت بكتاب على السفود ، وكان رئيس التحرير قد أحضره لى وقال لى : خذ من هذا الكتاب واشتم العقاد ! وكم أنا نادم على ذلك . . .

ولكن مقالات العقاد أثرت فىّ ، بحيث زعزعت أركان العقيدة الوفدية فى نفسى وعلمت أن العقاد والصحفى الكبير محمود عزمى ومن معهما فى جريدة «روزاليوسف» اليومية التى اتخذت منبراً لمهاجمة الوفد بالاتفاق مع صاحبتها - السيدة فاطمة اليوسف - علمت أنهم يعيدون تنظيم الجريدة ، فتقدمت إليهم لكى أعمل مندوباً لها فى الأزهر والمحاكم الشرعية ، واستعنت على ذلك بصديقى طاهر

أبو فاشا الطالب الأديب الجرىء الخفيف الظل الذى كان قد اتصل بالعقاد وصار من تلاميذه المقربين إليه وقدمنى طاهر إلى العقاد ، وكانت أول مرة ألقى فيها العقاد شخصياً ، وكنت سعيداً جداً بهذا اللقاء وبعملى فى الجريدة الذى لم يطل أمده لإفلاس الجريدة وتوقفها عن الصدور لمحاربة الوفد إياها واتخاذ الموزع سلاحاً فى هذه المحاربة ، فكانت شركة التوزيع تخفى الجريدة ولا توزعها . وقد ذكرت بعض مغامراتى الصحفية فى هذا العمل بكتابى «خطاً مشيناها» .

ولما تعطلت الجريدة رأيت من حسن الخلق أن أزور العقاد فى بيته ، وذهبت إليه دون تحديد موعد سابق ، وكان عاكفاً فى منزله لا يكاد يغادره ، إذ كان فى محنة شديدة ذات وجهين : وجه مادى ووجه معنوى ، الأول مفهوم لانقطاعه عن العمل الصحفى مصدر رزقه الوحيد والثانى إخفاق حملته على الوفد وما لابس ذلك من محاربة الوفد للجريدة ، وقال لى بأسف شديد ونحن جالسان وحدنا قرابة ساعة فى الشرفة صيفاً إن المؤسف أن يتضامن الوفديون فى محاربتنا على حين يتقاعس أنصارنا عن مد يد العون إلينا أو حتى السؤال الذى لا يكلفهم شيئاً .

مكثت مع العقاد نحو ساعة كما قلت لم أر فى خلالها عنده أى أحد وعرفت أنه يعانى الوحدة وانفضاض الناس من حوله . وقد تبسط معى فى الحديث تبسط من يجد أى إنسان يكلمه !

ولقيته بعد ذلك على فترات متباعدة ، وأعتقد أنه لم يعرف أنى ذلك الإنسان . . فما أنا فى نظره إذ ذاك إلا واحد من عشرات الذين يشدون الأدب ويحاولون أن يكونوا فيه شيئاً . ولكن كان مما يعجبنى فى العقاد مع تعاليه على الكبراء وتكبره على أهل الكبر أنه كان متبسطاً لطيفاً مع غيرهم ولا أقول متواضعاً ، فلم يكن التواضع من سماته على أى حال ، حتى فى أفكاره إذ يرى أن الفكر والأدب الرفيع مما يخص الخواص ، أما بقية الناس فهم همل أو قطيع لا حساب له

فى فكر أو أدب . ولهذا كان يعد فن القصة قليل القيمة ، لأنه – كما يرى فيما يبدو لى – يعنى بالناس العاديين ، كتب فيه قليلاً ، وركز على الشعر باعتباره فناً عالياً لا يهبط إلى العامة مثل القصص ، ولما كتب قصة «سارة» كتبها بطريقة مختلفة عن سائر القصص ، إذ جعلها أشبه بكتاب فى فلسفة الشك منها بقصة تروى وتعالج كما يعالج عباد الله القصصيون قصصهم ، والمعروف أنه تناول فيها حباً شخصياً له ، ولهذا تراه حباً عجيباً لا يحبه إلا العقاد . .

* * *

مرت الأيام ، واجتمعنا «أدبيا» فى مجلة الرسالة ، إذ كنا نكتب فيها مع فارق أنه كاتب كبير يكتب الافتتاحية وأنا كويتب صغير أحرر باباً فى المجلة ليس له ذلك الشأن الكبير .

فى خلال ذلك وقعت لى معه عدة وقائع يلاحظ فيها أن العلاقة الأدبية بينه وبينى أخذت فى طور آخر غير مجرد الإعجاب من جانبى ، لقيته مرة فى دار الرسالة على أثر كتابة لى عن الحركة الشعرية فى ذلك الوقت ، إذ قلت إن المدرسة القديمة تقترب من المدرسة الحديثة وصار الفارق بينهما لا يكاد يذكر ، قال لى محتجاً : تعال يا مولانا (وكان هذا الخطاب من لوازمه) ما هذا الكلام ؟ هل شعر الجارم مثلاً مثل شعرى ؟ أجبت بما أقدرنى الله عليه ، ونجانى من هزة العصا فى يده . .

كان ذلك أمراً هيناً جداً ، ولكن قاصمة الظهر كانت فى مجلة متحررة جداً ، أسندت رياسة تحريرها إلى الكاتب الساخط على الأوضاع «سيد قطب» أظن أنها مجلة «العالم العربى» فى ثوب جديد وطلب منى سيد قطب أن أكتب بمنتهى الحرية . وكتبت عدة مقالات بعنوان «الأفكار العارية» نقدت فيه كتابة المازنى فى «أخبار اليوم» إذ كان يسرف فى الإثارة الجنسية على نهج الجريدة التى اتخذت من كاتب أديب مثل المازنى وسيلة لنشر الأفكار العارية إلى جانب صور الأفخاذ العارية .

ثم جاء الدور على العقاد ، وكان قد قال قصيدة فى رثاء « النقراشى » وازنت بينها وبين قصيدة على الجارم فى الغرض نفسه والمناسبة ذاتها ، وخرجت من الموازنة بأن لا فرق بين الاثنتين وأن مسألة القديم والجديد ما هى إلا من الأساطير التى لا وجود لها فى الواقع . وأذكر مما صنعته فى ذلك أن أوردت نظرية العقاد فى وحدة القصيدة وأنها كائن حى مترابط ، وعرضت عليها قصيدته تلك فلم تنطبق على رأيه نفسه ، وأظهر ما فى الأمر أنك لو قدمت وأخرت فى الأبيات ما اختلف شىء ، وهو الضابط الذى كان قد وضعه هو للفرق بين القصيدة القديمة الفاقدة الوحدة العضوية وبين الجديدة المكتملة الشروط .

ويلاحظ أن ذلك كان قبل أن يوجد الشعر الحر الذى خرج على العمود وترامى إلىّ من بعض الزملاء الذين يحضرون ندوة العقاد فى منزله كل يوم جمعة – ترامى إلىّ أنه وصفنى بأنى « شيوعى ابن كلب » وكان هذا الوصف معداً جاهزاً عند العقاد يضفيه على كل من يكتب ضده .

وكان سيد قطب من تلاميذ العقاد ومريديه ، ولكنه كان حريصاً على شخصيته المستقلة وتحرره من كل ما يعوق إبداء الرأى ، وأمسكته أنا من هذا الزمام وأنا أقدم له ذلك المقال الذى ينال من أستاذه ، فنشره برغم ولائه للأستاذ !

ولا مناص من الإشارة إلى حادث كتبته من قبل ، لأنه هنا ذو دلالة مهمة ، ذلك عندما عثرت فى جريدة « المؤيد » سنة ١٩٠٦ على خبر صغير بتوقيع « عباس محمود العقاد » يدعو زملاءه راسبى الشهادة الابتدائية إلى الاجتماع لأمر هام فنشرته فى مجلة « الرسالة » معلقاً عليه بأن الأستاذ الكبير وأى أستاذ كبير مثله لا يضيره ولا ينقص من قدره أنه لم يحصل على شهادة . فامتنع العقاد عن الكتابة فى الرسالة وقال لسكرتيرها بالتليفون لما طلب منه المقال أنا لن أكتب فى مجلتكم ما دام فيها هذا الذى يكتب ضدى ! إما أنا أو هو .

وكان الزيات يدفع له لقاء المقال ثمانية جنيهات ، وجرى العقاد فى مقالاته الأخيرة على إعدادها ردوداً على أسئلة من الطلبة فى نقط ومواضع من كتبه فى العبقريات المقررة فى المدارس ، فانتهز الزيات هذه الفرصة و «وفر» الثمانية الجنيهات قائلاً إنه يعلن عن كتبه ويأخذ نقوداً !

وكانت تلك خاتمة كتابة العقاد فى الرسالة . وقد طلبت منه المجلة بعد ذلك مقالاً للعدد السنوى الذى يصدر خاصاً بعيد الهجرة ، وقال السكرتير الذى يطلب المقال إن الرسالة ترجو ألا يقطع الأستاذ العادة التى جرت بأن يتضمن العدد السنوى مقالاً للعقاد ، فقال العقاد لا ، إنه - يقصدنى - لا يزال يكتب عندكم !

وبهذه المناسبة نذكر أن أصل الفكرة فى تأليف العبقريات أن العقاد كتب مقالاً فى عدد من أعداد «الرسالة» الهجرية تحت عنوان «عبقرية محمد العسكرية» ثم جعل هذا المقال أو بنى عليه كتاباً أتبعه ببقية العبقريات لما رأى الكتاب الأول ناجحاً .

وإذ كان الزيات قد «وفر» ما كان يدفعه للعقاد ، فإن العقاد لم يضره ذلك ، فقد بدأت «أخبار اليوم» تستكتبه بأضعاف هذا المبلغ جرياً على سياستها فى استغلال أقلام كبار الأدباء للرواج الصحفى ، فوظفت عندها توفيق الحكيم والمازنى وسلامة موسى محررين ، واستكتبت العقاد من الخارج ، وإلى جانب ذلك كانت كتب العبقريات تدر عليه رزقاً كبيراً ، وهو لم يعرف الرزق الكبير إلا من العبقريات ، ويذكر الباحثون والدارسون كثيراً من بواعث تأليف هذه الكتب وآثارها الأدبية والفكرية ، ولكنهم يغفلون العنصر المالى فيها كباعث ، كما كان مثله عند طه حسين فى الكتب الإسلامية وربما لا يكون هذا باعثاً فى البدء ، ولكنه ولا شك حفز على الاسترسال والاستكثار .

الأدب لمجرد الأدب لا ينفع فى هذا البلد ، أى لا ينفع صاحبه فى معاشه

ولابد من إضافة شيء إليه ، ولولا كتابة المازنى التافهة المثيرة فى أخبار اليوم فى آواخر حياته لمات جوعاً . . وكان هو صريحاً يقر بذلك ، بل يكتبه ، وابحث الآن عن الأدباء فى الظل أى بعيداً عن أضواء الصحافة والسينما وما إلى ذلك ، تصدق ما أقول إن كنت من الممترين .

والحق أن توفيق الحكيم لم يسف فى كتابته بأخبار اليوم ، فهو رجل واع من يومه . . كانت كل كتاباته مواد قيمة جمعها فى كتب قيمة مثل كتاب « مسرح المجتمع » الذى يضم عدداً كبيراً من المسرحيات القصيرة المستوحاة من حياة المجتمع والتى تنفى عنه بشدة أنه من سكان البرج العاجى . ومن كتبه أيضاً التى نشرها فى أخبار اليوم مقالات ، كتاب « حمار الحكيم » و « قالت العصا » .

وبرغم ما كتبته وأغضب العقاد منى لم أفقد إعجابى بشخصيته واعتزازه بنفسه كأديب كبير وترفعه عن الصغائر وعما انحدر إليه غيره من الزلفى للحكام والمستبدين .

كان رجل مثل طه حسين ، على جرأته وقوته ، يخشى بأسه ، بأس العقاد ، بل كان يتملقه ، ومن ذلك ما فعله حين انضم إلى الوفد وترك الأحرار الدستوريين ، إذ أعلن فى حفل أقيم لتكريم العقاد لا أذكر مناسبته ، أن العقاد هو أبو الشعراء بعد شوقى ، أعلن ذلك وهو يعلم أن العقاد ليس كذلك . . . وقيل إنه يضفى على العقاد إمارة الشعر لكى تخلو له إمارة النثر .

ولم يكن طه حسين يستطيع أن يقول كلمته المشهورة فى ندوة تليفزيونية بعد وفاة العقاد ، إذ استهان بكتاب من كتب العبقريات وقال إنه لم يفهمه ، لم يكن يستطيع أن يقول ذلك فى حياة العقاد وهذا هو وجه المؤاخذة ، لو قال ذلك أو كتبه فى حياة الرجل لكان نقداً حراً يحمد عليه .

رحم الله العقاد وغفر له ولنا ولطه حسين .

أحمد حسن الزيات

لم أكن أعرف أحمد حسن الزيات قبل صدور الرسالة ولم أكن قرأت له شيئاً ، عرفت فيما بعد عند اشتغالى ببحث نشأة القصة القصيرة وما اقتضى هذا البحث من الاطلاع على الصحف والمجلات التى كانت تصدر إبان تلك النشأة – عرفت أن الزيات كان يكتب على قلة ، رأيت له مقالات فى جريدة السفور التى كانت تصدر حوالى سنة ١٩١٩ وتعنى أكبر عناية بالأدب والثقافة وتنشر للأعلام والرواد ، مثل محمد تيمور وشقيقه محمود ومصطفى عبد الرازق وطه حسين وغيرهم ، رأيت للزيات فى السفور ترجمة حلقات من رواية « غادة الكاميليا » بأسلوبه المنفرد ، وقال لى بعد اتصالى به – عن تلك الترجمة إنه شرع فيها مشتركاً مع أحمد زكى ، ثم تركها له يترجمها وحده لأن أحمد زكى كان يحب منيرة المهدية وأراد أن يعبر عن تقديره لها من خلال « مارجريت » بطلة الرواية . وفعلاً

ظهرت « غادة الكاميليا » فى كتاب مترجمة بقلم أحمد زكى بعد أن نشرت فصولها فى السفور

وحتى عندما ظهرت الرسالة لم يكن اسم أحمد حسن الزيات هو الاسم « الرنان » الذى يجذب إلى المجلة . . بل أعلن عنها باسم لجنة التأليف والترجمة والنشر التى أصدرتها أولا ، وكان الزيات رئيس التحرير أحد أعضائها ، ثم انفصل بها الزيات عن اللجنة بعد مدة . وكان يقال فى الإعلان إنه يكتب فيها أساتذة الجامعة ، وفعلاً كان يكتب فيها من هؤلاء الأساتذة طه حسين وأحمد أمين وأحمد زكى وغيرهم . وقيل إن الزيات قضى سنين فى العراق مدرساً ، وجمع مبلغاً من المال استعان به على إصدار الرسالة إلى جانب عون لجنة التأليف .

وابتدأ الزيات يأخذ مكان الصدارة بعد الانفصال وبعد انحسار « مد » الجامعة وأساتذتها ، وحل محلهم آخرون من كبار الكتاب مثل الرافعى والعقاد والمازنى . وبقى فى الرسالة من الأولين أحمد زكى يكتب مقالاته العلمية المعروفة وخاصة « قصةالميكروب » وكذلك الباحث المؤرخ المدقق محمد عبد الله عنان .

وكنت عند صدور الرسالة أغير جلدى . . كنت طالباً فى السنة الأولى من القسم الثانوى الأزهرى وقد بدأت أفتح عينى على عالم جديد غير عالم الأزهر ، بعض هذا العالم الجديد دخل الأزهر فى أشخاص مدرسى العلوم الحديثة ، وبعضه يجرى فى الخارج ونحن نطلبه ونركض وراءه فى « السياسة الأسبوعية » و« البلاغ الأسبوعى » و « المجلة الجديدة » وغيرها .

ولما صدرت الرسالة أقبلنا عليها إقبال الظامئ على مايبل غلته ، إذ كانت السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعى قد توقفتا عن الصدور ، ووجدت الرسالة مكاناً خالياً فملأته ، لم يكن المكان خالياً من المجلات الأدبية فقط . بل كان خالياً من« شئ » كان غامضاً فى نفوسنا ، هو الذى عبرت عنه عبارات كتبت على ظهر

الغلاف الأخير للمجلة ، فهى تعبر عن الأصالة العربية وتغترف من الثقافة العالمية ، أو كما قالت « تربط الشرق بالغرب على هدى وبصيرة » وكانت مواردها مصداقاً لتلك العبارات .

وبدأت ألتفت إلى الزيات ككاتب عربى ذى أسلوب ناصع يشبه أسلوب المنفلوطى الذى رضعناه صغاراً ، مع انتفاء عيوب فى أدب المنفلوطى أدركناها كباراً . كلاهما أزهرى مثلنا غير جلده وبقيت فيه آثاره من تراث عريق .

كانت أول مرة ألتقى فيها بالزيات شخصيا عندما كتبت مقالات « شعراء الموسم فى الميزان » وأنا طالب علم بالقسم الثانوى الأزهرى ، وطالب أدب فى كل مكان . . والواقع أنى لم أكن فى دراستى الأزهرية إذ ذاك بالطالب الذى ينبغى أن يكون ، كنت مخلخلاً معنويا وماديا . . أما معنويا فكنت أنشد ثقافة جديدة بالنسبة إلى مانشأت فيه وقطعت فى تحصيله مرحلة جادة ، ثم تبين لى أنى خلقت لشىء آخر ، وأما « ماديا » فأنا شاب ضائع أو مضيع . . لايعرف من أين يرتزق . . يضرب هنا وهناك ، مرة على هدى ومرات على غير هدى . .

ألقيت بالمقال الأول لفراش مجلة الرسالة هناك فى شقة بالدور الأرضى من منزل فى حى عابدين ، استأجرها الزيات للمجلة بعد انفراده بها بعيداً عن لجنة التأليف والترجمة والنشر . ونشر المقال الأول ، وذهبت بالمقال الثانى ، ثم الثالث وكذلك ، فلما كان المقال الرابع الأخير أسرع الفراش يقول لى : كلم الأستاذ ! ودخلت على الأستاذ فى مكتبه وأنا متهيب مدهوش . .

قلت وأنا أقدم المقال :

– هذا المقال الأخير عن شعراء الموسم .

– نعم ، هات ، سلم على الأستاذ !

– أنا . . . . هو !

– أنت !

– نعم أنا .

خلع نظارة القراءة وصعد نظره إلى وخفضه ثم قال :

– أهلاً وسهلاً ، اتفضل .

ثم نادى بصوت أنيق :

– ياعثمان ، هات قهوة

نطق عثمان بضم العين وإخراج اللسان فى الثاء ، وهو تعريب لاسم فراش المجلة « عتمان » بكسر العين وبالتاء ، حسب النطق العامى .

اعتذرت عن القهوه فلم يثن . . . وانصرفت . لم أتبين ملامحه تماماً لفرط اندهاشى وتهيبى ، وإن كان نطقه لعثمان ظل عالقاً بسمعى . . وأعجبتنى طريقته الطبيعية فى طلب القهوه من حيث الاكتفاء . بمجرد طلبها وعدم الإلحاح بشربها . هكذا يجب أن يكون .

وكان مجمل الانطباع لهذا اللقاء الارتياح إلى هذه الشخصية المنفردة .

وكان لنا صديق للزيات ولى ، هو الشاعر أحمد الزين الذى توطدت صداقته لى بالكتابة عنه فى مقالات « شعراء الموسم فى الميزان » ووفيته حقه من التقدير ، وليس مهما التكافؤ فى مثل هذه الصداقة ، هو شاعر كبير مرموق ، وأنا ناشئ صغير ضئيل الشأن ، ولكننا فى زعمى أديبان .

كان الزين يعرف حالتى ، فانتهز فرصة خروج مصحح الرسالة من عمله ، وكلم الزيات فى أن أحل محله . وقد شرحت ظروف ذلك فى الكتاب « خطا مشيناها » . ووافق الزيات . وقال لى وقد علم أنى طالب بدار العلوم التى لحقت بها فى تلك الفترة .

قال لى : إنك ستكون مدرساً تصحح كراسات الإنشاء للتلاميذ ، وهنا لن

يختلف عملك عن ذلك كثيراً ، ستصحح مقالات الكتاب وتنقيها من الأخطاء اللغوية والنحوية .

وهنا وقفة لأمر مهم فى حياتنا الأدبية . ذلك أن أخطاء الكتاب فى اللغة والنحو ليست جديدة الآن . . بل هى عريقة ، فباستثناء كتاب متمكنين من اللغة أمثال الرافعى والعقاد والمازنى وزكى مبارك والعريان وسيد قطب ، كان كثيرون غيرهم يقعون فى تلك الأخطاء ، ولكن القراء لايرونها ، إذ كانت أقلام التصحيح تعمل وراءهم وتنظف كتاباتهم ، وإن أفلت خطأ برز له فى « بريد الرسالة » من يأخذ بخناق الكاتب من أجله . . وممن كانوا لايجيدون التعبير العربى السليم مع اقتدارهم على المضمون الجيد الكاتب الكبير الداعى إلى القومية العربية « ساطع الحصرى » كنت أتعب فى تقويم عباراته ، وإن جلست معه وجدت صعوبة فى فهم مايقول . وكان الزيات فى أول الأمر لايكتفى بتصحيحى ، بل يطلب « بروفة نظيفة » ويجرى فيها تصحيحه ، ثم أطّلع أنا على تصحيحه وأستفيد منه ، ثم كانت البروفة النظيفة تعود إلى المطبعة نظيفة . . . فأراح نفسه معتمداً على الله وعلى « العبد لله » وكان حريصاً جدًّا على ظهور جميع مواد المجلة خالية من الأخطاء . ومن هنا كانت ثقة رجال التعليم بالرسالة ، إذا كانوا حريصين على ألايقدم للطلاب كلام ملحون . ولذلك قررت الرسالة للقراءة فى المدارس والمعاهد .

وكان ذلك ، أى العناية بالتصحيح التى تشمل التقويم ، معمولاً به فى غير الرسالة من المجلات والصحف ، ولم تكن العين تقذى بما تقذى به الآن مما هو معروف . .

يضاف إلى ذلك أن الكتاب كانوا يخجلون جدًّا من وقوع الأخطاء فى كتابتهم ، وكان النقاد لايرحمونهم ، ولم يكن أحد يقول لهؤلاء النقاد إنكم رجعيون جامدون لأنكم تنقدون اللغة !

ومن الكتاب من بدأ يخطئ فى اللغة خاصة فى كتب يصدرها ، ثم عيب عليه ذلك ، فاجتهد حتى صارت لغته سليمة وقويمة ، ومن هؤلاء محمد حسين هيكل ومحمود تيمور .

الخجل يدل على الشعور بالنقص ، والشعور بالنقص أول الكمال ، فليت القوم الآن يخجلون !

كان الزيات مقتراً مدبراً ، أحسن تدبير المال واستغل كل الظروف للإثراء . . واستمرت المجلة ناجحة نحو عشرين سنة ، بفضل التدبير الذى شمل جميع النواحى ، من أدبية وصحفية ومالية . فمن الناحية الأدبية والصحفية كانت الرسالة استجابة لمتطلبات المجتمع الفكرية على وجه عام ، ومن الناحية المالية خدمتها أشياء كثيرة ، لعل أولها وأهمها أن الكتاب لم يكونوا يتطلعون إلى مقابل مادى ، ومن تطلع منهم اكتفى بالقليل ، كان معظمهم موظفين ذوى مرتبات تواجه حاجات العيش مواجهة قوية مقتدرة . ومن هنا كسب الزيات وجمع ثروة .

المعروف أن مكسب الصحف والمجلات يأتى معظمه إن لم يكن كله من الإعلان ، ولم يكن يغيب ذلك عن فطنة الزيات ، فكان بالمجلة موظف خاص بالإعلانات ، وكان يرسله الزيات إلى أصدقائه فى الوزارات والمصالح ليحصل على الإعلانات ، ومن أهمها إعلانات « الحجزات » التى تبدأ عادة بعبارة إنه فى يوم . . . لم يكن القارئ يرى هذه الإعلانات . . فقد كانت تطبع فى ملازم مستقلة تدبس مع الأعداد التى يقضى القانون بإرسالها إلى ذوى المصلحة فى الإعلان . وكانت هذه تأتى بدخل كبير . وكان هناك إعلان دائم عن السكك الحديدية احتل مكان الشعار الخالد « تربط الشرق بالغرب على هدى وبصيرة . . إلخ » على صفحة الغلاف الخلفية . وكان هذا الإعلان الدائم بوساطة وزير المواصلات الأديب إبراهيم دسوقى أباظة . وقد تولى هذا الوزير الأديب وزارات

أخرى ذات اختصاص بشئون الطرق الزراعية ، فاستعان به الزيات فى بعض ما احتاجت إليه أراضيه الزراعية فى قريته ، وكان بعض هذه الأراضى أو معظمها ملكاً للسيدة زوجته ، ورثتها عن زوج سابق .

يدل ذلك وغيره على أن الزيات كان مشغولاً – إلى جانب الأدب – بالثروة وتنميتها . قال لى توفيق الحكيم مرة وقد سألنى عن الزيات : كيف هو وأين هو الآن ؟ فقد كان يتنقل كثيراً بين القاهرة والمنصورة ويقضى أياماً كثيرة بقريته « كفر دميره » المتاخمة للمنصورة – قال الحكيم : الأدب لايحب الضرة ! ومعنى هذا أن الأديب لكى يكون أديباً حقًّا لابد أن يعكف على الأدب فقط ويعيش فى محرابه ولاينشغل بغيره ، فإذا اضطره العيش إلى هذا الانشغال كان هذا « على الهامش » ولايكون مبرزاً فيه ، إذ إنه لوبرز فيه كان بروزه على حساب الأدب ، وعندنا أمثلة لذلك : إبراهيم ناجى ويوسف إدريس الطبيبان اللذان آثرا الأدب ، وتوفيق الحكيم نفسه النائب فى الأرياف الذى ترك كل شىء ماعدا الأدب .

وربما كان الزيات أديباً ذا شأن أكبر وإنتاج أكثر لولم يتخذ للأدب ضرة . والواقع أنى رأيته حسن التدبير ، بمعنى أن حرصه على المال لم يطغ كثيراً على حقوق لم يضيعها ومكرمات كانت له ، رأيت فى إدارة مجلة الرسالة التى كانت إلى جوار ميدان العتبة الخضراء عند بدء عملى معه – رأيت رجلاً من رجال الوطنية فى العراق هارباً من السلطة المستبدة فى بلده ولائذاً بالزيات ، وقيل لى إنه كان من تلاميذه ، كان هذا الرجل يقيم فى حجرة أعدت له فى إدارة المجلة ويأتى إليه الطعام فى مواعيده من منزل الأستاذ .

وفى فترة أخرى رأيت شابا يقيم فى نفسى الحجرة ويأتى إليه الطعام أيضاً من منزل الأستاذ ، وهو من قريته وقد تعلم فى القاهرة ، وقيل إنه خطيب ابنة السيدة زوجة الزيات . وكان هذا الشاب يعمل مديراً إداريا للمجلة ، وكان يحاول أن

يعاملنى بشىء من التعالى لم يصطنعه الأستاذ نفسه .وحدث أن انقطعت عن العمل مدة للاستعداد للامتحان وأدائه وأنا طالب فى دار العلوم ، فلما جاء موعد « القبض » أول الشهر خصم منى أجر مدة الانقطاع . فلما علم الزيات بذلك لم يرضه وأعاد إلى ماخصم ، وقال كلاماً طيباً أشعرنى بالأبوة التى أفتقدها . وقد صار ذلك الشاب فيما بعد من ملاك العمارات فى القاهرة . وحل محله فى الرسالة شاب آخر أمين مخلص ، ظل فى خدمة المجلة وصاحبها مدة طويلة ، وكان الزيات يرعاه ، ولما تزوج الشاب أسكنه الزيات فى شقة من عمارته الحديثة التى بناها فى حى عابدين ونقل سكنه وإدارة المجلة إليها وأعد الدور الأرضى للمطبعة . ولكنى قابلت هذا الشاب بعد أن توقفت الرسالة عن الصدور وبيعت المطبعة ، فوجدته ساخطاً على الزيات شاكياً منه ، لأنه لم يعطه مكافأة عن مدة خدمته ، وقال لى إنه يعمل فى مطبعة يملكها أديب سعودى كان ينشر فى الرسالة ، ثم رأيته بعد ذلك موظفاً فى إدارة جريدة الجمهورية ، وسمعت بعد ذلك أنه توفى .

وكان الساخطون على الزيات كثيرين ، أغلبهم ممن لم ينشر لهم فى الرسالة ، وكان حريصاً على اختيار المادة الصالحة للنشر ، ولم يعبأ بمن كانوا يهاجمونه فى الصحف لأنه لم ينشر لهم ، ومنهم نقاد قالوا إن أسلوبه متكلف يميل إلى التزويق والوصف ولايحمل مضموناً ذا قيمة . . . والواقع أن كتابة الزيات كانت« حمراء الخدين » كما عيب الورد . ولكنها كانت تحمل مضموناً ذات شأن ، فهو أول كاتب نبه على الثالوث الذى يعمل فى بنيان الأمة بالتخريب والتدمير ، وهو الجهل والفقر والمرض ، وكانت له حملات كثيرة على الإقطاع فى إبان استشرائه ، ومما يذكر أنه كتب يدعو إلى نظرية« الدكتاتور الصالح » زاعماً مع من زعموا أن حال هذه الأمة لايصلحها إلا هذا الدكتاتور المرتقب . . ولما جاء جمال عبد الناصر استبشر به وكتب فى الثناء عليه كثيراً ، حتى قال مرة فى إحدى كتاباته مامعناه : أن محمداً جاء داعيا

إلى الروحانية ، وصلاح الدين الأيوبى إلى المادية ، أما جمال عبد الناصر فقد شملت دعوته الناحيتين . وكان هذا مثارا لثورة بعضهم عليه ، وإن كان مسار هذه الثورة فى الخفاء . . وعد عليه ذلك من قبيل النفاق .

انقطعت عن الزيات مدة طويلة بعد أن أتممت الدراسة فى دار العلوم واشتغلت بالتدريس فى مدارس مصر والسودان . ثم جددت علاقتى به حينما تركت القلم الأحمر وامتشقت قلم التعبير والكتابة . واقتربت منه أكثر ، صرنا نقضى معاً أمسيات سمر ، وكنا ثلاثة نشترك دائماً فى هذه الأمسيات : أنور المعداوى وكامل محمود حبيب وأنا ، إذ كنا متلازمين ومتزاملين فى الوظيفه بوزارة المعارف وفى الكتابة فى الرسالة . وكان يحضر تلك الأمسيات أحيانا توفيق الحكيم عندما يجىء إلى مكتب الزيات وقد تعرفت به شخصيا هناك ثم صرت أذهب إليه فى مكتبه وهو مدير لدار الكتب بعد أن ترك أخبار اليوم . وكان يحضر تلك الأمسيات أيضاً زكى نجيب محمود ومحمود الخفيف وبعض الزملاء من الشقيقات العربيات والشاعر على محمود طه ، وكان هذا الأخير يحملنا على ترك المكتب والذهاب إلى بعض الكازينوهات أو إلى شقته الأنيقة التى يعيش فيها عزباً مع بنات أفكاره وبنات غير أفكاره . .

وقد لاحظت أن الزيات فى تلك الجولات ينفق عن سعة على خلاف ماعرف عنه من تقتير ، ويدخن على خلاف عهده الأول إذ كان لايدخن ، ولعله تطور من هذه الناحية ، إذ وجد نفسه قد اغتنى ويجب أن يمتع نفسه و« يتبحبح » وقد اهتم بصحته اهتماماً ملحوظاً ولم يعد يشكو من المرض كما كان من قبل ، وظل قلمه فتياً وفكره خصباً إلى آخر أيامه ، فقضى حياته طولا وعرضاً . وهذا التعبير قريب من تعبيره الذى أخذ عنه وكان السابق فيه ، إذ قال فى رثاء على محمود طه : إنه عاش حياته بالعرض لابالطول .

وظلت علاقتنا وطيدة ، لم يؤثر فيها موقف أول ، وإن كان أثر فيها موقف ثان . كان الأول عندما توقفت الرسالة عن الصدور سنة ١٩٥٢ ، وكتب الزيات فى آخر عدد يودع القراء ونشر هذا المقال فى الأهرام قبل ظهوره فى الرسالة ، وكان يتضمن شكوى من الضرائب المتجمدة على الرسالة منذ سنوات وتبلغ نحو اثنى عشر ألف جنيه ، وأن المجلة يثقلها هذا المبلغ فلا تستطيع أن تسير ، وكان يرمى من بعيد أن تستجيب حكومة الثورة التى يرأسها محمد نجيب فتسقط عنه هذه الضرائب . وأعانه العقاد وطه حسين بمقالين فى الأهرام عقب نشر مقاله ، وأبدى كل منهما أسفه على احتجاب الرسالة ، وضمنا كلامهما ذلك المعنى الذى يشير إلى الضرائب الباهظة .

كنت فى ذلك الوقت قد تركت الرسالة ، وتركها من قبلى أنور المعداوى ، وكنت أكتب فى أخبار اليوم باباً اسبوعيا بعنوان « جولة الفكر » . كانت الرسالة قد ضعفت وتخلفت عن الركب ، ركب العصر المتطور . ولقيت الزيات فى تلك الأثناء بمجمع اللغة العربية ، وحدثنى حديثاً ودياً بث فيه رغبته أن أشارك بالكتابة فى الأسى على الرسالة . ولكن الذى حدث كان عكس ذلك . . إذ أعرضت عن الشيطان الأخرس وكتبت ما أعتقد من أن المجلة العريقة اهملت وتخلفت فكان هذا مصيرها المحتوم . . ورد على الزيات متهماً إياى بالتحامل ، ونشرت رده بأخبار اليوم مع تعقيبى عليه بالتقدير الذى هو أهله . ولم يسرنى أن تلقف الكرة من يدى سلامة موسى وهاجم الزيات والرسالة .

والتقينا بعد ذلك عدة مرات وكأن لم يكن شىء . . .

ثم كان الموقف الثانى حين صدرت الرسالة مع زميلات لها عن وزارة الثقافة ١٩٦٣ وأسندت رياسة التحرير إلى الزيات . كانت حركة خصبة قام بها محمد عبد القادر حاتم وزير الثقافة إذ ذاك ، ولكن شاب هذا الخصب حشائش طفيلية

أضرت به متمثلة فى جماعة من موظفى الوزارة أرادوا أن يتسلقوا الرسالة وزميلاتها إلى غايات ليسوا مؤهلين لها ، وحاولوا الإفساد بينى وبين الزيات . ثم سافر الزيات إلى إسبانيا لعلاج عينيه ، ومكث هناك نحو ثلاثة أشهر توليت فيها رياسة التحرير نائباً عنه . ولما عاد نشطت عناصر الإفساد ، ونجحت هذه المرة عندما صورتنى له منافساً يريد أن يزحزحه ليحل محله . . وصادف ذلك فى نفسه ميلاً إلى أن يثبت وجوده مهما كبر وأنه لن يقعد مع القاعدين !

وقاومت ذلك فى أول الأمر ، قاومته فى شخص المفسدين الذين تمكنوا منه ، ولكن عندما رأيتنى فى مواجهته تراجعت وابتعدت عن المجلة . . .

ولم يسرنى فى هذه المجلة أيضاً أن هاجم الرسالة وزميلاتها لويس عوض بحملاته الضارية فى الأهرام ردا على حملاتها عليه التى كان أشدها ضراوة وأكثرها كشفاً لزيفه الأدبى مقالات محمود شاكر . ووجدت حملات لويس عوض حماية وصدى طيباً عند مراكز القوى التى قد بدأت تستشرى إذ ذاك . . .

كنت أثور أحيانا على أبى الزيات ، ولكن لم أكن أحب أن يهاجمه أحد .

طاهر أبو فاشا

لم يكن فى نيتى – فى هذه السلسلة – أن أكتب عن أحد من الأحياء .أردت أن يكون حديثى فيها إلى التاريخ الأدبى ، والتاريخ « حانوتى » قلما يتعامل مع الأحياء . . . وباعث آخر هو أن الشخصية الراحلة يستطيع القلم أن يجول فى أرجائها ويصول . . لايقيد صدقه فى التناول أى شىء ، ولو كان للشخصية أبناء وأقرباء ، بل إن هؤلاء لايحق لهم – فيما أرى – أن ينبروا مدافعين ، لأن الشخصية أصبحت ملكاً عاماً ليس مايتعلق بها مقصوراً على « الورثة » كلّ أولادها وأقاربها ولافرق بين ذى رحم وذى أدب . . إلا أن الأول يحاول التظاهر والتفاخر والتمسح . .

ولكن طيف أخى طاهر أبو فاشا ظل يلازمنى هذه الأيام بحيث لم أستطع الفكاك منه ولم أشأ أن أكون « طارد الطيف » كما لقب الشاعر القديم الذى زجر

طيف محبوبته لأنه زاره فى وقت غير مناسب للزيارة .

– طاهر أبو فاشا زميل الصبا وصديق العمر ولا نزال نلتقى ونتساقى كئوس الود والصداقة .

هكذا حاولت أن أتنصل ، ولكن الطرف الآخر من نفسى حاورنى فقال :

– وهل يمنع ذلك أن تكتب عنه ؟

– ربما ندت كلمة فآلمته أو أغضبته ، وأنت تعلم أنى فلاح خشن الطبع .

– ولكنى أعرف أن طاهر أبو فاشا أوسع أفقا من أن يغضب لشىء مما تذكر ، وأنه لايهتم :

كتبت عنه أو لم تكتب ، أى أنه متسامح فى حق نفسه ، لايعبأ بما يعبأ به غيره .

– أمتأكد أنت من ذلك ؟

– الا متأكد . . متأكد جداً ياأستاذ !

وابتسم الطرف الآخر وهو يعقب على ذلك فيذكرنى بوقائع ماضية :

– أتذكر– وأنتما طالبان صغيران – يوم سرق منك الدفتر « البلكنوت » الذى كنت تعتز بورقه المصقول الكثيف وسافر إلى بلده « دمياط » فكتبت إليه تعتب عليه أو تعنفه على هذه السرقة ، فرد عليك بنفى هذه التهمة ، وكان رده مكتوباً على ورقة من « البلكنوت » نفسه ! !

– وما دلالة هذا على مانحن فيه ؟

– دلالته أنه لايهتم بالدفاع عن « سلبياته » .

– تقول سلبياته ؟ إذن فله سلبيات .

– ومن ليس له سلبيات ؟ أتذكر يوم التقيت به فى مصيف رأس البر ، بعد افتراق دام سنين ووعد أن يأتى إليك فى الفندق ، ولم يحضر فى الموعد وسألته عن

ذلك حينما التقينا فأجاب بمنتهى الصراحة :

– ليس عندى ما أعتذر به إلا أنه سوء خلق !

– هذا والله عذر مقبول عندى !

ولكن قل لى . أليس عندك ماتذكرنى به غير ذلك ؟

قال الطرف الآخر : بلى ، كثير أنت تعرفه دون أن تحتاج إلى تذكير .

حدثنى عنه أخونا فى الصبا محمد شوقى أمين الذى كان يلم شملنا إنه طالب أديب شاعر ، كان فى معهد الزقازيق الابتدائى ، وجاء إلى القسم الثانوى بالقاهرة يطلب العلم إذ لم تكن المعاهد الأزهرية فى الأقاليم قد توسعت وامتد التعليم فيها إلى المرحلة الثانوية وكنا قد بدأنا حياة أزهرية جديدة فى قصر على مبارك بالحلمية الجديدة . ووفدت علينا إذ ذاك أفكار جديدة لاعهد لنا بها ، جذبتنا إلى آفاق أخرى غير الآفاق التى اتجهنا إليها من قبل أو أريد لنا أن نتجه إليها ، ولكن طبيعتنا تمردت ، واتخذت سبيلها نحو الأدب الجديد والتحرر من القديم الذى استغرقنا زمنا لم نعرف فيه غيره .

كان لابد أن ينضم إلى « شلتنا » ذلك الطالب الأديب الشاعر « طاهر محمد أبوفاشا » القادم من الزقازيق أو من موطنه الأصلى : دمياط ، كان لابد أن ينضم إلينا بحكم أن شبيه الشىء ينجذب إليه .

أى فتى ظفرنا به فى شخص هذا الطالب ؟ إنه ليس أديباً فقط ، إنه خفيف الظل ، فكه ، مرح ، لايكف الواحد عن الضحك والمرح وهو معه . وهو يلف ويروح ، ثم يغدوإلينا حاملاً أنباء جولاته هنا وهناك ، وكانت كلها فى مجالات الأدب والأدباء ، وماكان أشد شوقنا إلى أن نعرف مايدور فى هذه المجالات ، كان يذهب إلى الدكتور زكى أبو شادى وجماعة « أبولو » التى تلتف حوله ، ثم يصحبه بعض الشباب من تلك الجماعة إلى مقر سمرنا فى قهوة الحلمية ، ومنهم مختار

الوكيل ، وأحياناً يجيء معه سيد قطب ولا أدرى أين تعرف به . ومرة جاء يحمل أعداداً من مجلة « النهضة » التى كان يصدرها الدكتور غلاب . وكان هذا يستقطب بعض الأدباء الشبان وينشر لهم فى مجلته ، ومن جملة ماينشر فيها شعر لطاهر أبو فاشا . صاحب المجلة ورئيس تحريرها كفيف البصر ، قال طاهر : إنه تغفله وأخذ هذه الكومة من أعداد المجلة المكدسة عنده . وقلنا له :

– ماذا تصنع بهذه الأعداد ؟

– إن كل عدد منها « يطلع كنكة » .

وطاهر أبو فاشا شريب قهوة ، ولكن لايملك « وابوراً » ينضجها عليه ، فكان « يبرم » ورق المجلة أو الجريدة ، ويشعل طرفها ، ويمسكها بيد ، ويمسك بالأخرى « كنكة القهوة » حتى تغلى وتفور .

وعندما نذهب إلى « ندوة القاياتى » التى يتصدرها الشاعر الكبير « السيد حسن القاياتى » بفناء داره أو بالمندرة الواسعة عندما لايناسب الجو الجلوس فى الفناء – كان الخادم الريفى « محمد » يدور علينا هناك بفناجين القهوة السادة التى اعتادت « دار القاياتى » أن تقدمها للضيوف . . وضقنا بمرارة القهوة السادة ، ولم يخرجنا من هذا الضيق إلا طاهر أبو فاشا فقد استصحب فى جيبه كمية من قوالب السكر المكنة ، وجعل يسير وراء محمد . . هذا يصب القهوة فى الفنجان القابع فوق « الظرف » مشمراً كم جلبابه الواسع ، وذاك يضع فيه قالب السكر . .

لم يكن السيد حسن القاياتى شحيحاً بالسكر يضعه فى القهوة ، إنما كانت الدار عريقة فى الصوفية ، كما هى مزهرة بالأدب ، والصوفيون هم أول من التفت إلى البن من حيث رأوه يعينهم على السهر ويبعث فيهم النشاط للعبادة ، وأكثر مايكون فاعلية إذا كان بدون سكر ، أو قل إن غيرهم على مدى الزمن أضاف إليه السكر ، وكان من « غيرهم » طاهر أبو فاشا .

وبمناسبة « غيرهم » نذكر ما حدثنا به طاهر عن « بغيره » أخذاً من قول الشاعر : « من لم يمت بالسيف مات بغيره » كان فى الزقازيق هو ورفاقه الطلبة يذهبون إلى السوق بإناء كبير يملئونه « مشًّا » من إحدى الفلاحات مقابل ملاليم ، وبملاليم أخرى يشترون ليموناً ، ثم يعصرون هذا على ذاك ، ولست أذكر ماذا كانوا يضيفون إليه ويضربون المزيج ضرباً ، حتى يتخن ويصير غليظ القوام ، ويحضر كل منهم خبزاً ويأتون من هذا الـ « بغيره » ويعيشون عليه عدة أيام ، والمحقق أنهم لم يموتوا . . بل كانوا على صحة يحسدهم عليها المترفون . . لأنهم كانوا يتغذون بالضحك والمرح ، ومنهم من لايزال حتى اليوم – بعد أكثر من نصف قرن يضحك ويمرح . . !

وكم ضحكنا من « احتيال » قام به هو وبعض أصحابه على السيد حسن القاياتى ، ذهبوا إليه حزانى آسفين زاعمين أن الأستاذ سيد قطب محجوز فى « قسم البوليس » لأنه كان يشرب « عرقسوس » واحتك بالبائع ، فكسر قدره الزجاجية ، فأمسك به بائع العرقسوس واستنجد بالشرطى وأصر على أن ثمن القدر سبعون قرشا إما أن يدفعها سيد قطب أو يزج به فى السجن . . وهو لا يملك هذا المبلغ . فأعطاهم السيد حسن السبعين قرشاً . وحدث بعد ذلك أن كان سيد قطب فى ندوة القاياتى وخشى طاهر أبو فاشا أن يكشف أمره ، فقال للسيد قطب : لقد أرسلنا لك المبلغ مع الأستاذ عبد الحميد الديب ! وهذا لا يوصل شيئاً ، إنما يأخذ فقط . فضحك السيد حسن وقال : لقد أكله الذئب !

وطاهر أبو فاشا قلما يستشعر الحرج ، فهو يتخلص من أى موقف بنكتة ، بل هو يخلق المواقف الحرجة ثم يخففها أو يذهبها بنكتة . . مرة كان فى المنصورة واتفق معه الصديق على متولى صلاح الموظف هناك على أن يتناول عنده الغداء طعمية تصنع فى المنزل ، وكان الأستاذ الزيات يجلس فى قهوة هناك ويجتمع إليه أدباء المنصورة .

وأرسل على إلى طاهر ورقة كتب فيها أن تخلص من الزيات وتعال . فأطلع طاهر الأستاذ الزيات على الورقة . . . ثم كتب عليها : إن أستاذنا الزيات يقول :

إن المفلفلة اللذاعة لا تؤكل إلا جماعة !

وأكلوها جماعة .

* * *

لم يكن طاهر أبو فاشا طالباً فقيراً معدماً كما يضع نفسه فى كثير من المواقف ، إنما كان يصنع الفقر لنفسه ويسعى إليه بظلفه . . كان أبوه السيد / محمد أبو فاشا من تجار دمياط الميسورين ، وكان يرسل إلى ولده طاهر ما يكفيه من النقود . ولكن الولد متلاف ، ينفق ما فى الجيب ثم يواجه « الغيب » مواجهة يكون هو فيها الخاسر . . يدمن السجائر والقهوة ولا بأس بغيرهما . . ويعانى قلة النقود ، ولكنه لا يفقد مرحه أبداً . .

كان والده يرسل إليه ثمن « البدلة » فيبدده فى أشياء أخرى ويظل فى « بدلته » القديمة ، ثم رأى الوالد أن يتفق مع « ترزى - قماش وتفصيل « فى القاهرة وما على الولد إلا أن يأتى لعمل « البروفة » ثم يلبس . ولكن الولد الشقى يعقد اتفاقاً مضاداًّ مع الترزى بحيث يأخذ منه بعض الثمن ويلغى « تفصيل البدلة » ويكون الوالد قد دفع كل الثمن . .

هذا هو قد كبر وصار طالبا بدار العلوم ، ولكنه لم « يعقل » يقف فى الفناء ويتحلق حوله الطلاب ويضحكون . من يدخن يعطه سيجارة ومن لا يدخن يعتذر ويقول له طاهر :

- إذن هات مرادفها . .

ومرادف السيجارة هو مليم ثمنها فى ذلك الوقت !

المدرسة : مدرسة دار العلوم العليا التى لم تحول بعد إلى كلية ، كانت تنظم

رحلات إلى جهات مختلفة للسياحة الداخلية وزيارة الآثار . لم أكن أستطيع دفع مبلغ الاشتراك فى هذه الرحلات ، فكنت أحجم عنها وخاصة إذا كانت إلى الأقصر مثلا يرتفع الاشتراك فيها إلى مبلغ كبير ، ولكنى أرى بين الأسماء اسم طاهر أبو فاشا ، فأقول له :

– تعال ياوله . . . من أين لك هذا ؟

– ما دفعت ولن أدفع ، وإنما دفعوا لى . .

وعرفت أن الطلاب المشتركين فى الرحلة أصروا على أن يصحبهم طاهر أبو فاشا وهو ليس معه نقود أو زعم ذلك فاكتتبوا فيما يخصه . وقال لى هو معلقاً ؟

– أصل أنا حضحك الطوب !

وكانت « شقاوة » الطالب طاهر أبو فاشا من نوع مختلف جدًّا عما يكون من طلاب آخرين فى المدارس الأخرى ، فإن هؤلاء يكونون غالباً من الفاشلين فى الدراسة ، أما صاحبنا فكان – على غير ما يبدو فى الظاهر – مجتهداً جدًّا فى التحصيل ، فكانت المفاجأة المتكررة أن ينجح دائماً فى الامتحانات بتفوق .

وكانت خفة ظله تشفع له فى كثير من المواقف التى لو وقع فيها غيره لنال أشد العقاب ، كان النظام فى مدرسة دار العلوم حازماً صارماً كأنها مدرسة حربية . . وأذكر أنه عندما قامت الحرب العالمية الثانية أدخلوا فى الدراسة « التدريب العسكرى » فكان مجون « النفر » طاهر أبو فاشا يحدث الفوضى فى الصفوف . . . المدرب يقول بصوته العسكرى الحازم : قف ولكن هذا « النفر » المتمرد يظل سائراً وحده . . فيصرخ فيه المدرب .

– يا أفندى أنا بقول قف .

– ما أنا بقف أهو . .

ويحار المدرب بين أن يضحك مع الضاحكين أو يستمر فى جده العسكرى

للمحافظة على النظام .

وما أزال أذكر اللحن الذى اخترعه فأفسد به « الإذاعة المدرسية » التى كانت تذاع من « الراديو » فى موعد الغداء . ذلك أنهم أرادونا على أن نقف « طوابير » فى الفناء ونستمع إلى هذه الإذاعة ونحن جائعون تتطلع أبصارنا إلى المطعم الذى أعدت فيه موائد الغداء . وإذا طاهر أبو فاشا يقول موقعاً فى نغمة موسيقية : إلى الغدا . . إلى الغدا . . فتستجيب له أصوات الطلاب موقعة مثله ، كأنها أصوات « كورس » على مسرح . . ويتجه الجمع الحاشد إلى المطعم .

ولو أن طاهر أبو فاشا اتجه إلى المسرح لكان له فى تاريخ الفن المسرحى فى بلادنا ما لم يكن لأى مسرحى آخر . . كان يكون مثل « موليير » فى فرنسا ، يؤلف ويخرج ويمثل . . والسمة التى تميزه أنه موضوعى يشتمل إنتاجه على هدف غير مجرد التسلية والمتعة ، كان المتبع فى دار العلوم أن تقدم حفلا فى آخر العام الدراسى يمثل نشاطها الفنى والأدبى . وفى إحدى المرات عهد إلى طاهر بإعداد هذا الحفل ، فماذا فعل ؟ ألف وأخرج ولحن ومثل أهم دور فى تمثيلية عجيبة قدمت على مسرح حديقة الأزبكية وحضرها كثير من كبار رجال التعليم وغيرهم . كانت تدور حول مدرس لغة عربية ممن كانوا يسمونهم : ذوى الخبرة ، أى أنهم غير حاصلين على شهادة تؤهلهم لهذه المهنة ولكنهم زاولوها فاكتسبوا خبرة . كانت التمثيلية بعنوان « مدرس غير فنى » وقد تناولت فى قالبها الفكاهى الممتع قضايا لغوية منها هذه القضية :

كيف يعرب « محمد » فى جملة « ما سرق محمد » ؟ هل هو فاعل وكيف ذلك وهو لم يسرق ؟ أجرى الحوار فى « الفصل » هكذا بين المدرس والتلاميذ بعد أن طلب منهم أن يعربوا « ما سرق محمد » .

قال تلميذ :

« ما حرف للنفى والفعل فعل ماض ومحمد فاعل » .

يغضب الشيخ ويشير إليه قائلا :

«بس اجلس أخطأت الفكر   نمرتكم فى الدفتر صفر»

ثم يقبل عليه قائلا :

«إزاى تقول إنه فاعل   أما كلام ما يعقلش»

«لما تقول ما سرق محمد   مش يبقى يا ابنى مسرقش»

ويصيح على الجارم المفتش الأول للغة العربية معجباً : أى والله !

ويأتى الإعراب المصحح فى صوت جماعى من التلاميذ :

«ما حرف للنفى أتى   ينفى الحاضر والآجـل»

«والفعل فعـل ماض   ومحمد ماهش فاعل»

* * *

فى تلك الفترة انتشرت حفلات التكريم ، فأراد طاهر أبو فاشا وجماعة من أصحابه منهم سيد قطب أن يسخروا من تلك الحفلات . وتبرع أحد الصحاب أن يكون موضوع هذه السخرية هو الشاعر ، « مهدى مصطفى » كان شيخاً معمماً وعزم أن يخلع زى المشايخ ويلبس زى الأفندية ، طبعوا رقاع الدعوة ووزعوها وهى تبدأ هكذا :

« تتشرف لجنة ذكرى الأحياء من بنى آدم بدعوة حضرتكم لحضور الاحتفال بإزاحة الككولا عن جثمان الشيخ مهدى مصطفى » .

وتنتهى هكذا :

« لا أراكم الله مكروها فى عزيز لديكم » .

وكانت حفلة حافلة بدأها سيد قطب – عندما خرج مهدى مصطفى لحاجة ما – بقوله « بمناسبة تغيب المحتفى به نبدأ الحفل » .

وخطب فيها أكثر من عشرين شاعراً منهم حسين شفيق المصرى وسيد قطب

وأحمد مخيمر ألقى طاهر أبو فاشا قصيدة بدأها بالتغزل فى محبوبته « ستيتة »

ستيتة لا تكن نجواك عزلى فإن بمهجتى حللا بتغلى
وبين اضالعى وابور جاز وإبرته جفاك الشمعل

وفى النهاية ألقى المحتفى به قصيدة مطلعها :

أو مكرمى . . فشرتموا ، الله كرمنى ويعرف قيمتى ويقدر

* * *

كان سيد قطب قد أنهى دراسته فى دار العلوم منذ سنوات ، وقد عرفته عن طريق طاهر أبو فاشا ، إذ كان صديقاً حميماً له . كانت أول مرة تعارفنا فيها بقهوة الحلمية إذ جاء إليها سيد قطب من أجل صديقه طاهر . وأخذنا السمر ، فلم نشعر بمرور الوقت حتى جاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، وكان سيد قطب يسكن فى حلوان ، وقطار حلوان ينتهى سيره فى الواحدة تماما ، فجاء معنا إلى مسكنى فى الحلمية ، حيث بتنا معا ونمنا على سريرى ذى الأعمدة الحديدية الأربعة واضطررنا أن ننام على السرير نحن الثلاثة بالعرض . . حتى يسعنا وكان طاهر يسكن معى ، أو قل ينزل عندى ، إذ لم يكن له مسكن . . ننام على السرير فيأتى بالكتب الضخمة ويضعها تحت المخدة الرقيقة البالية لإعلائها . . ومرة قلت له : خذ هذا شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، إنه كبير ينفع فى التعلية تحت رأسك فقال : لا ، ابعده عنى . إن فيه « الأخفش » وأخشى أن « يطلع لى » فى أثناء النوم ، والأخفش هو أحد علماء النحو .

وطاهر أبو فاشا لا يأبه بمواضعات الناس . إنه يفعل ما يراه هو صواباً ولو أنكره الناس . فى صباح تلك الليلة التى استضفنا فيها سيد قطب خرج لابساً « بيجامته الحريرية » وبيده « السلطانية » وعاد يحملها مملوءة بالفول المدمس بيد ، وباليد الأخرى أرغفة الخبز ، وتحت إبطه حزمة من البصل الأخضر . .

تذكرت ذلك لما زرته فى مصيف رأس البر بعد ذلك بسنين كثيرة ، وخرجنا فى الصباح من « عشته » إلى السوق لشراء ما يلزم . . . وقابلنا مدير المجمع الاستهلاكى الذى يعرف طاهر أبو فاشا معرفة ودية . وجرى بينهما الحوار الآتى :

– إلى أين يا أستاذ طاهر ؟

– إلى السوق لنشترى لحما .

– تعال يا أخى عندى ما يلزمكم .

– لا ، دع هذا للمحتاجين . . نحن نقدر على الشراء بغير أسعار التموين .

ومضينا إلى السوق وهو يخب فى جلباب بلدى وقدماه فى « بلغة » .

وتأملت ملامحه فى تلك اللحظة فرأيت عليها سيماء الجد . . والواقع أنى كثيرا ما أرى « الجد الحزين » على وجه صديقى طاهر برغم ما يبديه من مرح وفكاهة . . ولا أزال أذكر ألمه وحزنه يوم فصل من الأزهر لاشتراكه فى تأليف جمعية هو وبعض الأصدقاء وكانت كلمة « جمعية » فى ذلك الوقت تخيف المسئولين وتجعلهم يتوقعون منها التمرد والعداء للنظم القائمة .

وراح طاهر يسعى لإلغاء فصله ، واستطاع أن يأخذ موعداً لمقابلة شيخ الأزهر « الأحمدى الظواهرى » وجعل يعد قصيدة يمدحه فيها ويتقرب إليه بها كى يعيده إلى طلب العلم . . . ولمحت أمامه قائمة كتب فيها الكلمات التى تنتهى بالدال المكسورة وتتمشى مع القافية الدالية كالأحمدى ، فرأيت فيها كلمة « إدلعدى ! » التى ترددها النسوة فى خطابهن .

– ما هذه ؟ أتقول لشيخ الأزهر « يا دلعدى » . ؟

– قد أحتاج إليها فى قافية !

وضحكنا ضحكاً صافياً برغم الألم ، أو قل ضحكا أذهب الألم . . .

ويبدو ذلك الجد الحزين فى شعر طاهر أبو فاشا الجاد . . برغم مرحه المعهود

الذى لايزال والذى يشبه مرح الطفولة . . جاءنى عندما تقرر قبولنا فى دار العلوم برغم السن الزائدة عن سن القبول ، عمرانا متقاربان – جاءنى صائحا فى فرح طفولى « خلاص . . لم نعد مجاورين » وكانت فى نفوسنا عقدة أننا مجاورون . وقد زالت هذه العقدة والحمد لله . ولولا أنها زالت لما أقررت بها . بل أكثر من ذلك قد نعتز بأن كنا مجاورين فى الأزهر ، إن صح أن نعتز بشىء .

* * *

طبع طاهر أبو فاشا ثلاثة دواوين وهو طالب ، وكان أولها وهو فى معهد الزقازيق والثانى فى معهد القاهرة الثانوى ، والثالث فى دار العلوم ، واسم الديوان الثالث « الأشواك » يدل على الجدية الحزينة ، ويقول فى قصيدة منه :

يا هاجرى . لاراعك الهجر وعداك من أحشائى الجمر

وإنك لتعجب أشد العجب من ذاك الذى يضحك الطوب وفى أحشائه الجمر !

وإذا أغضينا عن الديوان الأول الذى أسرع بإخراجه قبل النضج فإن فى الديوانين الثانى والثالث شعراً رائعاً يدل على الشاعرية المبكرة ، وكله أو جله يعبر عن الجد الحزين .

ولدينا أمثلة أخرى لشعراء مصريين عرفهم الناس من أصحاب الفكاهة فى المجالس ، ولكنهم لم يكونوا كذلك فى أشعارهم ، منهم حافظ إبراهيم . وثمة العكس مثل محمود بيرم التونسى ، ولله فى خلقه شئون . . .

وانشغل طاهر أبو فاشا بالبرامج الإذاعية كما تعلم ، فهو مشهور خاصة بألف ليلة وليلة التى كانت تذاع فى الشهور الرمضانية ، ومن إنتاجه الإذاعى المعروف تمثيلية رابعة العدوية التى مثلتها أم كلثوم وغنت فيها قصائد من نظمه أو قل من معاناته فى التعبير .

وله قصائد كثيرة فهو لم ينقطع عن قول الشعر ، ولكنه حتى الآن لم يطبعها فى ديوان .

وفى أثناء وجوده فى الوظيفة بالإدارة العامة للتوجيه المعنوى بالقوات المسلحة ألف عدة كتب قومية منها كتاب قيم فى الوحدة العربية ومقوماتها . ولا أخالك إلا قرأت مقالاته التى نشرتها قريباً مجلة « الثقافة » بعنوان « صفحات من أدب الرحلات » والتى كتبها عقب عودته من رحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية زار فيها ابنته وزوجها المهاجرين والمقيمين فى نيويورك ، وأنى لنا بهذه التحفة التى تظهر قريبا إن شاء الله فى كتاب .

وزع طاهر أبو فاشا مواهبه المتعددة على مجالات مختلفة ، ولو كرست جهوده فى مجال واحد لكان لها أو له شأن آخر ، ولكن هكذا كان ، ولعل الخير فيما كان . . وماذا يجىء منه بعد ؟ القلم فى يده والباب مفتوح . . . .

سيد قطب

عرفت سيد قطب شاباً أديباً من الطليعة فى عصره ، تخرج فى دار العلوم ، وشرع يكتب شعراً ونثراً ، والنثر بين مقالات وقصص قصيرة ، يتردد إلى العقاد ، ويعد من تلاميذه ومريديه المجددين .

أول ما قرأت له مقالاته فى معركة أدبية نشبت بينه وبين محمد سعيد العريان فى مجلة الرسالة . كان أحدهما « أهلاوى » والآخر « زملكاوى » . . فسيد قطب متعصب لعباس محمود العقاد ، وسعيد العريان متعصب لمصطفى صادق الرافعى وأصل الخصومة الأدبية بين القطبين : العقاد والرافعى . العقاد وأولاده إنسانيون والرافعى وأنصاره متهمون بالتبرقش الكلامى . وعلى هذا الأساس دارت رحى المعركة بين الشابين ، كل منهما متعصب لأستاذه .

والواقع أنى كنت أميل إلى حجج سيد قطب فى هذه المعركة ، ولهذا سمحت

لنفسى أن أقول الآن كصدى لما كان : إن العقاديين إنسانيون ، والرافعيين متبرقشون ! وفى فترة لاحقة رأيت أن الإنسان « يحتاج إلى معالجة أدبية أخرى غير معالجة العقاديين ، معالجة تهتم بحياته ومجتمعه ، ولا بفرديته وتميزه أو أكثر من فرديته وتميزه » .

ووجدت ذلك فعلا عند سيد قطب لما تقدم فى حياته وفى أدبه واستقل بشخصيته عن العقاد وإن ظل صديقاً موالياً له . ولم تمنع هذه الصداقة سيد قطب رئيس تحرير « العالم العربى » من أن ينشر هجوما على العقاد فى المجلة على نحو ما ذكرت فى الكلام على العقاد . كان هذا فى المرحلة الثانية من حياة سيد قطب الفكرية .

ذلك أنى أستطيع أن أقول إن سيد قطب مر فى حياته الفكرية بمراحل ثلاث على وجه الإجمال : المرحلة الأولى تتلمذه على العقاد واعتناق آرائه ، والمرحلة الثانية استقلاله الفكرى والتفرد بثورية أدبية شاملة تتميز بالسخط على الأوضاع القائمة . سواء فى السياسة وفى غيرها من نواحى الحياة . وكان سلاحه فى هذا المقالات النارية التى كان يكتبها فى « الرسالة » وفى مجلة « العالم العربى » التى أسندت رياسة تحريرها إليه ، وكان ذلك عقب نكبة فلسطين وقيام دولة إسرائيل ، وكان فى ناحية السياسة ينقد بشدة اختلاف العرب وتقاعسهم كما كان يكتب فى النقد الأدبى بأصالة وبصيرة نفاذة وتذوق فنى ، ولما تحول إلى الدين فى المرحلة الثالثة كما سنرى ، فقده النقد الأدبى وخلا مكانه فيه ، وله كتاب نظرى فى النقد الأدبى ليس على مستوى نقده التطبيقى .

وفى هذه المرحلة الثانية اشتبك مع محمد مندور فى معركة أدبية حامية ، دارت رحاها على « الهمس » فى التعبير الأدبى أو « الأدب المهموس » الذى نادى به مندور فى مجلة « الثقافة » فانبرى له سيد قطب فى « الرسالة » متهماً هذا الهمس بأنه نعومة

واسترخاء فى الوقت الذى نطلب فيه الجهارة والقوة والصدام . وكان ذلك من ثورية سيد قطب الفكرية العامة التى تصاعدت وتفاقمت حتى بلغت القمة فى المرحلة الثالثة .

وكان سلاح سيد قطب فى هذه المرحلة الثانية المقال وهو من كتابنا الذين برعوا فى فن المقال ، وأهم كتبه إذ ذاك مجموع مقالات مثل كتاب « كتب وشخصيات » الذى نشرت مقالاته الأدبية النقدية فى « الرسالة » .

وكان ينطلق فى ثورته الإصلاحية من مجرد التعبير الأدبى ، حتى أنه عندما ألف كتابه « التصوير الفنى فى القرآن » وكتابه « مشاهد القيامة » كان جهده مبذولا فى تبيين الصور الأدبية وجلاء الناحية الفنية أكثر من أى شيء آخر .

ويبدو أن كثرة تأمله فى القرآن نقلته إلى المرحلة الثالثة : إلى الفكر الإسلامى الذى استغرق فيه تماماً – وشغل به عن المسائل الأدبية والنقد الأدبى الذى كان اهتمامه به أكثر فى المرحلتين السابقتين ، ويمثل استغراقه الإسلامى كتاب « فى ظلال القرآن » خير تمثيل .

* * *

لم يكن سيد قطب من « شلتنا » فى قهوة الحلمية ، وإن كان يزورها أحياناً طلباً لصديقه طاهر أبو فاشا ، وكان مما يجمع بينهما ولاؤهما للعقاد ، وظلت علاقتى به من بعيد فى المرحلة الأولى . ثم توطدت صداقتنا فى المرحلة الثانية واشتركنا فكريًّا فى حمل هموم مجتمعنا ، وكنت إذ ذاك أكتب فى مجلة الرسالة الباب الأسبوعى « الأدب والفن فى أسبوع » وأذكر أنه قال لى فى مناقشة عن الاتجاهات الأدبية :

إننى أشعر أننا فى حاجة إلى مرحلة ما بعد العقاد ، إلى الانتقال من الذهنية الغالبة والخواطر العقلية إلى المشاعر والوجدان .

وكنا نلتقى فى أماكن مختلفة ، منها إدارة الثقافة فى وزارة المعارف التى نقلت

إليها من التدريس ، وكان هو فيها من قبل ، وقال لى أول ما رآنى هناك : « مبروك » التدريس « مجزرة للأديب » .

ومن تلك الأماكن « قطار حلوان » الذى حل محله « المترو الحالى » كان يسكن فى حلوان وكنت أسكن فى المعادى ، وكان القطار يجرى بنا بين محطة باب اللوق والمعادى وبالعكس ، هادئاً يكاد يكون خالياً – لم نكن قد تكاثرنا بعد ، وقد زحمته أنا بعد ذلك بخمسة من الأولاد ! كثيراً ما جلسنا وحدنا فى « ديوان » من تلك الدواوين ذات المقاعد الجلدية الوثيرة ، وعندما يصل القطار إلى محطة الوصول ينقطع الكلام ، كأن قد أدركنا الصباح وأسكتنا عن الكلام المباح . . وقد نتمشى فى حى باب اللوق نواصل الحديث . . .

عرفته فى هذه المرحلة متقد المشاعر نحو الثورة الإصلاحية ، وألف فيها كتاب « العدالة الاجتماعية » وكان هو صاحب هذا التعبير الأول حينما كانت كلمة « الاشتراكية » كلمة شائكة . . كانت أختاً لكلمة « الشيوعية » ، والكلمتان من ينطق بهما داعياً أو محبذاً يعرض نفسه للباب الذى تأتى منه العواصف ، أما « العدالة الاجتماعية » فهى مساوية للاشتراكية ، ونستطيع أن نقولها دون أى بأس .

وكنت أزوره أحياناً فى منزله بحلوان ، فأجد هناك الصديق الشاعر محمود أبو الوفا الذى كان هو أيضاً مشغولا بالتعبير الشعرى عما نقصد إليه فى مناقشاتنا ومحاوراتنا .

ولا أنسى ليلة قضيتها فى قسم « البوليس » بحلوان . . إذ اشتبه فى رجل شرطة غبى وكنت فى منطقة « عين حلوان » أتنزه . فلما رآنى هناك ليلا أمسك بى متهماً إياى بوضع قنبلة عند العين لنسف مبناها ، وعلى هذا « الافتراض » فأنا عميل صهيونى . . وكان ذلك عقب قيام إسرائيل . قال لى ضابط الشرطة « النوبتجى »

فى القسم : أتعرف أحداً بحلوان يضمنك ؟ قلت نعم . وأمليته عنوان سيد قطب . وكان لا يزال مأموناً موثوقا به عند السلطات . . . وجاء الصديق المنجد . . جاء لابساً معطفاً فوق « البيجامة » وبقدميه « شبشب » لم يلبث حتى يستبدل به حذاء . وعرف الموضوع من رجل الشرطة الذى استدعاه . فلما دخل ورآنى أشار إلىّ ضاحكاً وهو يقول للضابط : إنه صهيونى خطر . . لا تدعوه يفلت ! وخرجت من القسم ناجياً من النوم على « البرش » فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل . وكتبت على أثر ذلك كلمة فى « الرسالة » بعنوان « الأدب والفن فى قسم حلوان » ومما يذكر أن الضابط كتب فى المحضر : « وبتفتيشه عثر فى جيوبه على شعر ومقالات ،وفى سنة ١٩٥٠ سافر سيد قطب إلى أمريكا مبعوثاً من وزارة المعارف (وزارة التربية) فى رحلة ثقافية استغرقت نحو سنة ، اختاره لها وزير المعارف « إسماعيل القبانى » وكان هذا يقدره ويقربه .

وتبادلنا الرسائل . وأخذت مراسلاتنا صيغة عامة ، بحكم ما جرينا عليه من المناقشات فى الموضوعات العامة ، لهذا كنت أنشرها فى باب « الأدب والفن فى أسبوع » بمجلة الرسالة : أذكر أنى قلت له فى رسالة منها : إنى (قرفان) من الأحوال عندنا . فرد علىّ يعاتبنى على أننى (قرفان) . . على حين يجب على أن أسخط ، ويجب أن نعلن سخطنا ، وأن السخط هو المنطلق نحو الهدف ، ولا يكفى (القرف) . ويجب على كل من ينزل به ظلم أن يجأر ولا يسكت ، فإن السكوت جريمة ، لأنه يطمع الظالم . يقول فى ذلك :

« . . وتقول : من حقى أن أكون « قرفان » من جانب حالتنا التى لا تسر . لست أحاول أن أمنعك من (القرف) ! ولكنى أحب أن يستحيل هذا (القرف) سخطاً . نحن فى حاجة إلى السخط على أوضاعنا الحاضرة لا إلى (القرف) منها ، فإن معناه أن ننفض أيدينا من الأمر يائسين» .

« وإذا آمنا بأن لنا رصيداً من كنوز الطبيعة الأرضية ومن كنوز الطبيعة البشرية على السواء ، وأن حفنة من « الباشوات » و « الكروش » هى التى تهمل ذلك كله وتقبله ، فإنه يكون أمامنا أن نصنع شيئاً ، أن نجمع كل العناصر الساخطة المتيقظة ، لننشئ سياسة جديدة ، وليس من الضرورى أن ننتظر الحلول الجاهزة من (موسكو) كما يحاول أحيانا بعض المخدوعين فى موسكو . أن حلولنا يجب أن تنبت من بيئتنا وظروفنا ، يجب أن ندرس أولا واقعنا ثم نجد الحلول المحلية التى تناسبنا » .

« وأنا أؤكد لك ما أنا واثق به إلى حد العقيدة : إننا نملك حلولا أهدى وأقوم من الحلول الواردة من لندن أو واشنطون على السواء » .

« إننا نملك « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » وهى كفيلة بأن ننشئ لنا مجتمعاً آخر غير هذا الذى نعيش فيه ، مجتمعاً إسلامياً متحضراً يؤمن بالسماء ويؤمن بالأرض ، لا كما يحسب الجاهلون أن الدين تزهد وتقشف وتخل عن شئون الأرض للمفسدين » .

ويقول سيد قطب فى رسالته إلىّ :

(وأفرغ من هذا إلى تعليقك على رسالتى إليك . . . عن تلك الحفنة من « الباشوات » و« الكروش » وعن تلك « الحفنات » التى تحدثت عنها من الوصوليين الذين يسيرون فى ركابهم ويصهرون إليهم وغير ذلك من أساليب ، فيكتالون ويستوفون وهناك مئات من ذوى الكفايات يقعد بهم الحياء وتحتجنهم الكرامة فيهملون . . . . وبذلك تحرم البلاد من خير أبنائها وأوفرهم حياء وكرامة ، ويحرمون هم مما تلغ فيه « الكلاب » كما تقول .

« أنا لا أومن بهذا الحياء» الذى يقعد بأصحاب الكفابات عن بلوغ حقهم ، وترك الكلاب تلغ فى الاستثناءات وغير الاستثناءات .

« بل أنا أشك فى (كفاية) هذه الكفايات ، التى ترى حقوقها تؤخذ وتعطى

للكلاب من الوصوليين ، ثم تتقبل ذلك راضية وتستنيم ! .

« لو أن كل هذه الجموع من الموظفين وغير الموظفين ، التى لا تملك صهراً إلى وزير أو كبير ، ولا تملك الوسائل الأخرى التى لا يرضاها الرجل الشريف والتى تقفز بأصحابها فوق الأمناء الشرفاء . . . أقول لو أن هذه الجموع كانت لها كفايات حقيقية لما سكتت على هذا الفساد ، ولما تركت هذه الوسائل الملتوية تعمل عملها فى داخل الدواوين وخارجها » .

لا أظن أنى أثقلت عليك بنقل تلك الفقرات هنا ، ذلك الكلام الذى كان يصور حالا قائمة ، ولاتزال لها ذيول . . .

* * *

عاد سيد قطب من رحلته إلى أمريكا كما هو ساخطاً حتى على أمريكا نفسها ، كان يعتقد أن الحضارة الغربية هناك قد شملت نواحى الحياة المادية من حيث ترف الإنسان وتلبية احتياجاته المادية ، ولكن ليس لها قيم أو مثل كما عندنا . وكنت أقول له : أين ما هو عندنا والحال كما نرى . . . تأخر فى الناحيتين ، فلا ماديات ولا روحيات ؟ على أنى لم أسلم مطلقا بأن السلوك هناك متأخر كما هو عندنا . . .

– إن القيم والفضائل والسلوك القويم أشياء كامنة فى حياتنا وتحتاج إلى إبرازها وإزالة الغبار عنها .

– هذا أمل لا بأس به ، ولكن . . . متى ؟ وكيف نعتز بما هو مفقود فى أعمالنا وتصرفاتنا ؟

هكذا كانت المناقشة بيننا غريبة . . . هو آت من هناك ساخطاً على ما هناك وأنا قابع هنا أدافع عما هناك . . .

ونحن جميعا نشترك فى « السخط » وقد اعتذرت له عن مجرد « القرف » وأعلنت سخطى .

وجاءت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وأحسسنا أنها تعبر عن ذلك « السخط » ورأيت سيد قطب فى حالة نشاط غير عادى ، تحمس للثورة كوسيلة للتغيير وأمل فى أحسن . ولكنه ركز على وزارة التربية ، ونقد أساليبها فى التعليم نقداً شديداً – وصورها بأنها لاتزال تسير على سياسة « دنلوب » الإنجليزى الذى يمسك بزمامها ويديرها طبقاً لسياسة الاحتلال الرامية إلى مجرد تخريج موظفين متشبعين بالروح الإنجليزية .

وكان يتردد إلى (مجلس الثورة) وتردد اسمه فى الصحف ، ضمن أنباء اجتماعات ولقاءات ، وشممت من بعيد رائحة تطلعه إلى تولى وزارة التربية . ولكن . . . تولاها سيد يوسف الذى كان يمت إلى جمال عبد الناصر بصلة عائلية .

وشعر سيد قطب بخيبة الأمل فى ذلك المنصب . واشتد سخطه على « الأحوال الجارية » عامة وعلى الصحافة بوجه خاص ، لتخليها عن مهمتها فى التنوير وصدق التعبير وجنوحها إلى طريق الإثارة والتفاهة . . وأذكر ندوة اشترك فيها ، وقال فى الصحافة ما قاله مالك فى الخمر . . . وكنت إذ ذاك محرراً فى جريدة « الأخبار » وحضرت هذه الندوة لأكتب ما يدور فيها للجريدة . ولمحنى سيد قطب منهمكاً فى التدوين . . فقال لى هامساً . أرح نفسك فلن ينشر ما تكتب ! ولم أعر قوله التفاتا ، وكتبت ما قال سيد قطب ، وقدمته للنشر . فلم ينشر . . . واستبانت لى سذاجتى و« عبطى » !

* * *

ثم ترامت إلينا أنباء انهماك سيد قطب فى المعارضة مع الإخوان المسلمين . فالواقع أن علاقتنا انقطعت فى هذه الفترة ، لاختلاف السبيل الذى سلكه كل منا ، فقد بقيت فى محراب الأدب ، وبعد هو عن هذا المحراب . أو قل إنه جرَّ الأدب إلى « الدعوة » فإن خير ما تركه فى هذه الدنيا مؤلفه الدينى الأدبى العظيم

« فى ظلال القرآن » .

لم ألمس فى سيد قطب فى أثناء علاقتنا بالمرحلة المتوسطة ، ولم أعرف عنه قبلها ، أنه مشغول بقصيدة دينية وبتحقيق مقتضياتها ، بل على العكس من ذلك ، كان فى المرحلة الأولى على كثير من المجون الذى يصطنعه بعض الأدباء ، وفى المرحلة الثانية كان - كما رأيت - مشغولا بالثورة الإصلاحية والتعبير الأولى عنها من غير إغراق فى الشئون الدينية ، وكان يرى - كما قال لى فى خلال مناقشة بيننا - إن الدين ضرورى لقيادة القطعان البشرية ولا يمكن أن يسلس قيادها لغيره ، وأعتقد أنه كان ينظر إلى الإسلام على أنه ثقافة إنسانية ، وأنه نظام صالح لحياة بشرية راقية ، بغض النظر عن غير ذلك . وأعتقد كذلك أنه مر بمرحلة شك « قال له زنديق : إن إثبات وجود الله أمر صعب . . فرد عليه قائلا فى حيرة : ونفيه أيضاً صعب »! .

وفى المرحلة الثالثة ، التى انهمك فيها انهماكاً كليًّا فى الدعوة الدينية على طريق الإخوان المسلمين حدثنى بعض الأصدقاء بأنه كان صادق العقيدة مجاهداً فى سبيلها إلى درجة الاستعداد للاستشهاد . . . ويقول بعضهم . إنه نال ما تمنى .

ومما قاله لى بعض الأصدقاء إنه رآه مرة فى الفترة الأخيرة من حياته ، وكانت عين السلطة عليه وعلى تحركاته رآه يتمشى على شاطئ البحر فى مصيف رأس البر ، فناداه من بعيد يستوقفه ، ولما اقترب منه صافحه . ثم فوجئ الصديق به يدفعه عنه ويشير إليه أن يبتعد . . حتى لا يقع فيما يجرى عليه . . .

وقد أكبرت سيد قطب أو أكبرت ذكراه كل الإكبار لماسمعت أيضاً من صديق ، قال إن سيد قطب حدثه قبل أن يكتب شيئا فى ظلال القرآن يقف للصلاة بين يدى الله ويتلو ماسيتعرض للكتابة عنه من آيات الكتاب ، يتلوها بتذوق وإمعان ، ويتشبع بماتوحى إليه من المعانى والخوالج ، ثم يكتب . . .

أكبرت ذلك للصدق الكبير فى التعبير.

والواقع أن سيد قطب - برغم كل شىء - كان طموحاً جداً إلى درجة قاتلة... وكان فى الوقت نفسه شمعة تضىء وتحترق. ولعله كان يرمى من طموحه إلى الرياسة أن يتمكن من العمل.

وقد اتخذ للطموح عدته من دأب وكفاح وتكريس، فلم يتزوج ولم ينشغل بأولاد كما تزوجنا وانشغلنا. والأولاد مجبنة. وقد وقعنا فيها.

ومع ذلك الطموح الكبير، بل الإفراط فيه إلى حد أن ثقل به... لم يلجأ إلى دخل أو تهريج للوصول.

كان جاداً مترفعاً، أذكر عقب عودته من أمريكا أن كتبت عنه جريدة المصرى شيئاً قالت فيه «الدكتور سيد قطب» فكتب فى العدد التالى أنه ليس «دكتوراً» وكان يمكن أن يترك ذلك اللقب يجرى على الأقلام والألسنة ويشيع مسندا إليه... كما يفعل بعض المواطنين.

محمود حسن إسماعيل

لم ينشأ محمود حسن إسماعيل كما نشأنا ، نشأ أديباً أحسن من نشأتنا . . بدأ يفهم الأدب على نحو اقتنعت أنا به فيما بعد . . .

بدأت أقرأ الأدب العربي المأثور ، وما يصل إليّ أو ما أصل إليه من الآداب الأجنبية المترجمة ، وإلى جانب هذا وذاك كتابات وأشعار أدبائنا المعاصرين ، وأختلط ببعض هؤلاء وأتأثر بهم شخصياً كما أتأثر بما يكتبون وينظمون . وكان كل ذلك يجرى فى القاهرة .

وكانت حصيلة ذلك كله إلى جانب ما أتلقاه من أساتذة فى المدارس والمعاهد انطباعاً تقليدياً وفهماً للأدب على أنه كلام فخم يرص رصاً بحيث تتكون منه « لوحات » تلعب فيها الكلمات دور الألوان فى اللوحات . . .

وفى خلال ذلك تحاول الآداب الأجنبية العالمية أن ترسل بصيصاً يضىء

برهة ، ثم يتغلب عليه ذلك المأثور

والمعادلة الصعبة - كما يعبرون فى هذه الآونة - أن أدباءنا المعاصرين أو معظمهم ألموا بالثقافتين العربية والغربية ، ورأوا أدباء الغرب يعبرون عن شعوبهم بأصالة وصدق ، ولكنهم مع ذلك غارقون إلى الأذقان فى تكوين « اللوحات » وإن كانت خليطاً من آثار أدباء العرب وأدباء الغرب على سواء ، حتى الذين أخذوا فى القصص الحديث عن الآداب الأجنبية الحديثة ، كانوا كذلك من المغرمين باللوحات ذات الخط الكبير من الكلام المرصوص الجميل ، والخط الضئيل من التعبير البسيط العميق عمن حولهم من ناس وما حولهم من أشياء . ولا يخدعنا ما يتضمنه كلامهم من الدعوة إلى أدب قومى يعبر عن البيئة المصرية .

أما محمود حسن إسماعيل فمن حسن حظه أنه جاء إلى القاهرة متأخراً كبيراً بعد أن تكون فهمه الفطرى للأدب بين الأكواخ والحقول ، جاء إلى القاهرة من قرية فى قلب الصعيد . نشأ وكبر وتكون مزاجه الأدبى فيها ، تلك هى قرية « النخيلة » .

قال لى الصديق الذى فقدناه اليوم ففقدنا بضعة منا ، وهو يحدثنى عن نشأته : « عشت فى قريتنا السنوات الأولى ، ولم أكن فى معظم الوقت مع أهلى فى « الكوخ » بل كنت أعيش فى الغيط على مشارف نهر النيل جنوب « أبو تيج » أشارك فى العمل : أعزق الأرض وأبذر الحب وأتابع البذرة منذ غرسها حتى الحصاد ، وتعلمت فى « الخص » ودرست فيه . وتقدمت إلى امتحان شهادة « البكالوريا » من الخارج وحصلت عليها نظام دار العلوم - ثم رحلت إلى القاهرة لأدخل دار العلوم .

كنت أقرأ فى « الخص » الصحف وخاصة « البلاغ الأسبوعى » وهو الملحق الأدبى الذى كانت تصدره أسبوعيًّا جريدة البلاغ . كانت هذه الصحف تأتى إلى

« الباشا » صاحب الضيعة المجاورة لحقلنا ، كان واحد يعمل عند الباشا اسمه فريد ، يذهب كل يوم إلى مكتب البريد لإحضار بريد الباشا وفيه الجرائد والمجلات . وكان فريد يمر بى فأتصفح بعض ما يحمل ، وآخذ منه البلاغ الأسبوعى لأقرأه فى يوم أو يومين قبل أن يوصل للباشا . . لم تكن لدى فى الخص أية كتب غير الكتب المدرسية ، ولم أقرأ شعراً غير المحفوظات المقررة ، ومن هذه المحفوظات بدا رفضى لكل قول مكرر وتعبير زائف .

اصطدمت بمحمود عندما قرأت ديوانه الثانى « هكذا أغنى » ولم أكن قرأت ديوانه الأول « أغانى الكوخ » وإن كنت قرأت بعض ما كتب عنه وما وجه إليه من حملات . .

أهدى إلى نسخة من « هكذا أغنى » وقد تعارفنا فى مجلة الرسالة التى كنت أعمل بها وأنا طالب بدار العلوم ، وكان هو ينشر بها أشعاره . رأيته من قبل وأنا طالب بالسنة الأولى فى دار العلوم وكان هو قد تخرج وأنهى دراسته فى ذلك العام (١٩٣٦) جاء إلى أستاذنا « محمد هاشم عطية » لعله كان يطلب وساطته فى وظيفة . جلس فى مقعد من مقاعد الطلاب وهو يقول للأستاذ : كم يسرنى أن أعيد هذه الجلسة معك كأستاذ ! ونظر بعضنا إلى بعض معجبين مندهشين : هذا هو الشاعر الشاب الخريج محمود حسن إسماعيل الذى بدأ نجمه يبزغ فى سماء الشعر ، حقًّا إنه هو . . . دارت حول ذلك همساتنا فى حجرة الدراسة .

قرأت ديوان « هكذا أغنى » فاصطدم اتجاه الشاعر فيه بالمفهوم الذى استقر عندى إذ ذاك ، وكتبت عنه كتابة من يختلف معه . كنت متشبعاً بالروح التقليدية من حيث المضمون الاجتماعى ، أو فى الحقيقة كنت لا أزال موزعا بين الاتجاه التقليدى وبين اتجاه آخر كنت أشعر بإرهاصاته فى نفسى ، اتجاه يعنى بالتعبير عن الناس ومواجعهم أكثر مما يعنى بشىء آخر .

كنت متأثراً بما قيل وما كتب عن الديوان الأول « أغانى الكوخ » الذى لقى هجوماً عنيفاً من بعض النقاد ، حتى أن أحدهم كتب عنه بعنوان « شاعر يكتب عن أسباخ القرية » وفى رأى هذا الكاتب أن الشاعر أو الكاتب لا يكونْ شاعرا أو كاتباً حقًّا إلا إذا كتب عن جمال القمر فى القرية مثلا . أما الأسباخ والأتربة والإنسان المتمرغ فيها فلا يليق أن يتناولها من يحترم نفسه !

وكانت الاستعارات البعيدة التى يستعملها شاعرنا موضع التندر والفكاهة فى المجالس مثل قوله عن الكوخ « بعثر عليه الدمع » إذ كتب ناقد يقول إن الدمع لا يبعثر وإنما يسكب . . والواقع أن محمود حسن إسماعيل كان يبعد أحيانا كثيرة ويشتط حتى يتعب قارئه ويضطره إلى أن يعيد قراءته حتى يعى ما يقول . وكان يوغل وراء ما يريد صيده ، فإما أن يدركه ويأتى به وإما ألا يأتى بشىء ذى بال . .

وتابعته فى أطوار شعره ، وأخذت نفسى بالصبر فى قراءته ، وأعتقد أنى أنصفته من نفسى بعد أن أنكرته ، وعبرت عن ذلك فى كتاباتى عنه .

فى العهد الأول كان ينفر منى . . وخاصة بعد كتابتى عن « هكذا أغنى » وحدثنى بعد ذلك أنه مكث أسبوعاً لا ينام لأنه تخيل أن ورائى من ألبونى عليه من الخصوم الذين يحاربونه !

وانعقدت أواصر الصداقة بيننا ، إذ لمست فيه إنسانية صافية ، وبهرتنى شخصيته المترفعة عن الصغائر . وكانت فيه تلقائية صريحة نحو الذين لا يهضمهم ، أذكر أن كنا فى مهرجان شعر بالإسكندرية ، وكانت إحدى الشاعرات تقتحم مجلسه وتحاول أن تتقرب إليه ، فكان ينهرها قائلا لها فى لهجة صريحة : ابتعدى . أنت لست أنثى رقيقة . . . صوتك كالفحيح !

توقفت علاقتنا شيئاً فشيئاً ، وكنت أتأمله وأتأمل تصرفاته فى الرحلات الأدبية التى اشتركنا فيها بالخارج والداخل . كنت أراه أحياناً يمشى كالتائه أو كمن يبحث

عن شيء لا يجده . كنا مرة ببغداد فى طريقنا إلى أطلال ديوان كسرى ، وقد أشرفنا على تلك الأطلال القريبة من مدينة بغداد وكنت أمشى إلى جانب الصديق عبد الرحمن الشرقاوى الذى لمح محموداً وهو شارد النظر . قال لى الشرقاوى :

– انظر إلى محمود حسن إسماعيل . . أمره عجيب !

– إنه يمشى بعيداً عن الركب منعزلا كأنه يبحث عن شيء يعنيه هو !

واتفقنا على أنه شاعر ، لا كالشعراء الذين يتحلون بلآلئ الشعر . . وإنما هو يعانى التعبير الشعرى ، وهذا يستبد به ، وهو لا يجد فكاكاً عنه !

ومرة كنا عائدين من رحلة فى البحر الأحمر وفضلنا العودة عن طريق « القصير » و« قنا » ثم ركوب قطار الصعيد إلى القاهرة . وفى القطار لمحت صديقى محمود حسن إسماعيل ينظر من نافذة القطار وعلى أساريره علامات « السفر إلى الآفاق البعيدة « ذلك » السفر الذى يقوم به وهو جالس معك . . كان القطار يقترب من « النخيلة » مسقط رأسه ومراح طفولته وشبابه .

وسألته : ماذا هناك ؟

قال : ذلك « الخص » ألا تراه ؟

إنه « الخص » الذى ولد فيه لاأقصد ميلاده الحقيقى ، بل ميلاده الشعرى وهو الذى سبقت الإشارة إليه . إنه وإن لم يقل الشعر فى هذه الفترة ، قدتكونت شاعريته فى هذا الخص ، يتأمل ماحوله ومن حوله ويختزن الصور الشعرية أو مادتها الخام . . يستمع إلى أصوات الغربان والبوم والهداهد ، وإلى شدو السواقى وبكاء الشادوف وإلى مزامير الرعاة ، وكان هو يزمر فى زمار البرسيم (ساق نبات البرسيم) وكثيراً ماغنى مع الفلاحين الأغانى الفلكورية كأغانى « دق الذرة » وتسمى هنا السطاح تبدأ هكذا :

يقول رجل وهو يهوى بنبوته على كيزان الذرة منغماً صوته فى قوة وعزم

« جاهيلي » فيرد الباقون عليه وهم بدورهم يهوون على الكيزان بالعصي الغليظة : « ياراجم الله »

حتى إذا جاء إلى القاهرة وتحركت فى نفسه بواعث الشعر ، تذكر ذلك الكوخ وحن إليه باكياً :

بعثر عليه الدمع ماصفقت ... فى قلبك الألحان ياشاعر
وطف حوالى ركنه والتمس ... نور الهدى والرشد ياحائر
هنا خبايا النفس مطمورة ... تمشى عليها الزمن الحائر

صوت جديد على أسماع القاهرة ، كان المترفون من أهلها – أدباء وفنانين – يتغنون بالريف وجمال الريف« وما أحلاها عيشة الفلاح ! » وكان هو مشغولاً بما هو تحت القشرة الزائفة كل مايقال كلام مكرر ، يقلد فيه اللاحق السابق . وكان هو يريد أن يقول شيئاً جديداً يعبر به عن الواقع ، وهو غير مايقولون .

وارتفع صوت الكوخ حتى فى وجه الملك . . فاروق . . طاف الملك با الصعيد لمواساة أهله بعد انتشار حمى« الملاريا » وفتكها بهم ، وعاد إلى العاصمة وأقيمت له حفلة تكريم ، قال فيها شاعرنا الشاب :

وجاس بالكوخ أرضاً غرس نبتها ... جوع وشكوى وأسقام وعلات
ترى العفاة فيها فانين تبصرهم ... وفيهم من بنى الدنيا علامات
مهلهلون على أبدانهم مزق ... كأنها لصراخ البؤس رايات

وقد عيب عليه أن يمدح الملك وخاصة بإصدار ديوان « الملك » ، عيب عليه ذلك بعد زوال الملابسات التى قال فيها ذلك الشعر ، وتلك الملابسات تقول إن فاروق كان ذلك الوقت لايزال شابا تتعلق به آمال الشعب ، لم يفسد بعد وكانت له مبادرات طيبة مثل مواساته لأهل الصعيد فى الملاريا وكان كلّ يمدحه من شعراء وغير شعراء ، وغنى له كبار المطربين والمطربات وعلى رأسهم عبد الوهاب

وأم كلثوم ، فكان مدحه تعبيراً شعبياً صادقاً على أن مدح محمود حسن إسماعيل للملك كان يتضمن كثيراً من صور الشعب الكادح ويعبر عن كدحه وتطلعه ، فكأن صوت الكوخ يقول للملك نحن هنا ! أما أن فاروق انحرف بعد ذلك عن صالح الشعب فهذه مسألة أخرى .

* * *

عقب أن جاء محمود إلى القاهرة شعر بأزمة نفسية عميقة كادت تحمله إلى العودة إلى القرية ، ركب القطار لأول مرة فى حياته ونزل إلى العاصمة فرأى عالمها الصاخب تتجسد على أرضها صور الترف ونسيان الإنسان الذى هو فى الغيط يستخرج منه لأهل القاهرة خبزهم الطرى الشهى وهو محروم منه !

وكانت تلك الأزمة المحرك الأول لشاعريته ، فمن خلالها انبعثت ألحانه الجديدة فى الحنين إلى الكوخ وبث مايعانيه للمدينة .

وكان إذ ذاك طالباً بدار العلوم ، وفيها لقى بعض المعاناة ، ولكن يداً حميمة بها تلقفته ، هى يد الأستاذ المتجدد دائماً « مهدى علام » الأستاذ الشاب بدار العلوم . استكشفه الأستاذ كطالب شاعر متميز وشجعه وأعانه على طبع أغانى الكوخ ولما صدر الديوان دعا إلى حفل تكريم له بدار العلوم . وظل التلميذ وفيا لأستاذه عارفاً فضله يذكره فى كل مناسبة .

بدأ قول الشعر يستمد من مخزونه فى القرية ، ولم يكن قرأ كتباً أو نقداً عن تطور الشعر والتجديد فيه ، لم يكن عنده غير الكتب المدرسية ، وغير ذلك المخزون الذى تكون من معاناته وتأمله ومعايشته لإنسان الكوخ وما يحيط به من أشياء ، بصره ذلك بزيف مايقوله الشعراء وجعله يعثر على ما أفلت منهم ، وهو المعنى الإنسانى المعبر عن الإنسان «وعذاباته» ، وظل طوال حياته الشعرية « مدرسة » وحده ، يخطئ من ينسبه إلى الرومانسية أو إلى الواقعية الساذجة !

قال لى مرة أنا أضع نفسى إن شئت فى مذهب « اللامذهب » وفى الكون الأوسع لا الكون المحدد الذى ينجذب وراء حبال النقاد ، فالطبيعة السليمة للشعر والشاعر تأبى هذا الانقياد أو التمثيل والامتثال .

ومن مخزونه فى نشأته بالكوخ الصور المستوحاة من جو الكنائس والأديرة والرهبان ، إذ إن البيئة التى نشأ بها تكثر فيها المعالم المسيحية وفى قرية « النخيلة » شارع رئيسى اسمه « شارع الراهب » وبجوار بيتهم هناك كنيسة كان يسمع أجراسها ويرى عندها بعض رجال الدين المسيحى .

حدثنى صديقى محمود عن نشأته وحياته فى مناسبات كثيرة ، وطالما جلسنا فى قهوة بميدان الجيزة نتحدث أحياناً ، وأحياناً أخرى نصمت فنشعر خلال الصمت بكلام كثير . . نمزج ما نمزج وأسعد بافترار ثغره الأفلج الذى يضىء فى وسط بشرة صعيدية سمراء ، وهو محتفظ بالنغمة الصعيدية فى كلامه . وفجأة أراه قد ضم شفتيه وسافرت عيناه إلى بعيد ، كأنه يبحث عن شىء لا يجده . . .

حدثنى عن متاعب لاقاها ولا يزال يلاقيها فى بيت أراد أن يبنيه فى القاهرة ، فى « كوخ قاهرى » يستقر فيه هو وأولاده . عذبه الموظفون فى محاولة استخراج « الرخصة » وهم يحاولون أن يحصلوا منه على ماتشير إليه أيديهم النحيفة المطالبة . . وهو يأبى ، ثم سخر من أحدهم فوضع فى اليد الممدودة قرشاً فلما اجتاز عقبة الترخيص وقع فى عذاب « المقاول » وعماله وسارقى أدوات البناء . . . إلخ ، قال وهو يعود بذاكرته إلى الوراء سنين طويلة ثم يقفز إلى الحاضر المؤلم :

أذكر أن « مونا عبود » ابنة المليونير « عبود باشا » ذهبت للنزهة فى مزارع أبيها بكوم أمبو ، ونشرت صورتها وهى تتأرجح فى أرجوحة لها ثلاثة حبال من الحرير الأخضر ، ثمنها اثنا عشر ألف جنيه ، فأوحى إلى ذلك بقصيدة :

« أرجوحة ودمع » .

– ماذا قلت فى هذه القصيدة ؟

– قلت :

تأرجحى ... تأرجحى . .   هـــــذا أوان المرح
حـــول الحمى يا غانية   طفل حشـــاه دامية
وأنت فـــوق الراسية   مشغولة بالقـــدح
تأرجحى . . تأرجحى   هـــــذا أوان المرح

وفى قفزته إلى الحاضر المؤلم يقول : لم تنته تلك الصورة ، وكل ما فى الأمر أنها تتلون بلون العصر . . وأنا . . . بعد الكدح الطويل والمعاناة الطويلة . . لاأستطيع بناء كوخ ! ويزفر ، ثم يقول وكنا فى ذلك الوقت قبل أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

لا . . . ليس هذا همى ، لا يهمنى الآن إلا أن أستعيد الوجه الذى فقدته فى عام ١٩٦٧ .

وعاد الوجه المفقود . . . وعلت الإبتسامة الحلوة وجه الصديق الشاعر الذى حمل هم وطنه ومجتمعه قرابة خمسين عاماً ، ولم يكد يحمل همه أحد . . . حتى سافر إلى الكويت منذ سنوات عقب إحالته إلى المعاش . . . كان فى نيته أن يكمل « الكوخ القاهرى » ولا أدرى ماذا فعل الله به ، حتى وافانا نعيه من الكويت . وجاءنا جثمانه فشيعناه إلى «الكوخ الأخير» .

وبقينا نحن فى هذه الحياة التى نفقدها جزءاً فجزءاً كلما رحل صديق وتخلف عن ركب الحياة رفيق .

واحسرتا على الصديق الشاعر الإنسان !

أحقاً لن نرى تلك الابتسامة الحلوة بعد اليوم ؟ . .

محمد فريد أبو حديد

قال لى مأمون غريب الأديب المحرر بالأخبار إنه رأى فى «أرشيف» اخبار اليوم رسالة من محمد فريد أبو حديد إلى مصطفى أمين يعاتبه فيها قائلاً له : إنك «سلطت علىّ» عباس خضر لكى يكتب ضدى !

وكان ذلك ، أى حديث مأمون غريب إلى ، بعد عدة سنين من تركى العمل الصحفى هناك ، وكنت محرراً بالأخبار وأكتب باباً أسبوعياً فى أخبار اليوم بعنوان «جولة الفكر» .

آه . . تذكرت ، أنا الآن صديق لفريد أبو حديد ، و«ما محبة إلا بعد عداوة» كما يقول المثل الدارج ، وما أصدقه ! إذ تكون المحبة أو الصداقة قد توقفت بعد أن مرت بما عجم عودها وخرجت منه قوية ظافرة .

كتبت ضد ذلك الرجل فعلاً فى «الرسالة» قديماً ، وفى «أخبار اليوم» بعد

ذلك . لم تكن تعجبني تصرفاته ، لما كان من «شلة» لجنة التأليف والترجمة والنشر ومجلتها «الثقافة» المنافسة لمجلتنا «الرسالة» .

والواقع أن فريد أبو حديد كان يكتب فى الرسالة أولاً محتفظاً بصداقته لصاحبها ، حتى كتب مقالات تاريخية ، والتاريخ أصل تخصصه فى مدرسة المعلمين العليا التى تخرج فيها ، تناولت خصومة بين أحد السلاطين فى مصر وبين وزيره . قالوا إن فى هذه المقالات إيماء ورمزاً إلى الموقف الناشب بين الملك فاروق وبين رئيس وزرائه مصطفى النحاس ، وفيها انحياز للوزير وترجيح لكفته فى الدفاع ، إذ كان هو يمثل رأى الشعب إذ ذاك ضد السلطان الذى لم يكن يرعى المصلحة العامة .

وكان فريد أبو حديد برغم كونه موظفاً كبيراً فى الدولة – وفدياً ، وهذه المقالات انتصار للوفد ضد الملك . وفزع الزيات من أن مجلته تستغل هذا الاستغلال الحزبى ، وكان محايداً لا ينتمى لحزب من الأحزاب وبطبيعة الحال كان يخشى السلطة الممثلة فى الملك ، فأوقف نشر مقالات أبو حديد .

ومنذ ذلك الحين فترت العلاقة بين الزيات وأبو حديد ، وكان أبى الزيات يرضعنى أحياناً – وأنا فتى غر – كراهة منافسيه وخصومه ، وكما ضحكنا متندرين باسم مجلة «الثقافة» عندما صدرت ، وكنا نسميها «السآفة !» كما ينتظر أن ينطقها بائع الصحف عندما ينادى عليها !

وبرغم تلك «الرضاعة» كنت فى أعماق نفسى أكبر فريد أبو حديد ، لموقفه ذاك الشجاع ، وكنت لا أميل إلى «بيروقراطيته» المتمثلة فى كونه مديراً عاماً بوزارة المعارف ، وكان المدير العام فى ذلك الوقت شيئاً مهولاً ، أضف إلى ذلك أنه كذلك فى نظرنا نحن الصغار المساكين !

* * *

عندما عين محمد فريد أبو حديد مديراً عاماً للثقافة بوزارة المعارف كنت موظفاً فى هذه الإدارة منقولاً حديثاً من التدريس ، وذهبنا إلى مكتب المدير العام للتسليم والتهنئة ، ورأيت بعض الزملاء الكبار يتصاغرون أمام سعادته . . وسمعته يقول لأديب معروف : أنت يا فلان تكتب فى الصحف وتفهم . . وينبغى أن يكون إدراكك كيت وكيت . .

قال ذلك بشىء من التعالى الذى يتفضل بإضفاء صفة أقصى ما يكون . . . إذن فالمقياس عنده أن يكتب المرء فى الصحف . . لم يقل له مثلاً : أنت أديب ولك قدرك ، ذلك القدر الذى يعرفه الجميع .

واستمر فى هذا المنصب مدة طويلة ، حدث فى خلالها أن أنشئت إدارة لإصدار سجل ثقافى يرصد النشاط الفكرى ويعرف به ، وكان محمد سعيد العريان هو صاحب الفكرة ، وقد عين مديراً للإدارة الجديدة ، وعين عبد الحميد يونس (لم يأخذ الدكتوراه بعد) وكيلاً لها ، وكامل محمود حبيب وأنور المعداوى وأنا أعضاء فنيين ومعنا موظف إدارى وساع ، وكان من عمله أن يذهب بمقالاتنا – مقالات الأعضاء الفنيين – إلى مجلة الرسالة ويأتى لنا منها بالنسخ المجانية .

واختيرت للإدارة شقة بعمارة فى ميدان التحرير . والواقع أن هذه الشقة تحولت إلى شبه منتدى ثقافى يؤمه أصدقاؤنا وزوارنا ، هذا عبد القادر القط العائد من بعثته فى إنجلترا والذى لم يعرف بعد ، وهذا نزار قبانى الشاعر الناشئ الموظف بالسفارة السورية ، وهذا الضابط الشاب يوسف السباعى الذى يكتب القصة القصيرة وتنشرها له مجلة «مسامرات الجيب» ، وهذا إبراهيم الوائلى الشاعر العراقى الطالب بدار العلوم ، وهذا شاكر خصباك الكاتب القصصى العراقى الطالب بكلية الآداب فى جامعة القاهرة ، وهذا غالب طعمة فرسان الكاتب العراقى الطالب فى دار العلوم ، وهذا الشاعر اللبنانى الرحالة محمد على الحومانى ومعه ابنته الأديبة

الجميلة «سلوى الحومانى» ، وهذا الولد الصغير صبحى شفيق الذى بدأ يتردد على المجالس الأدبية مثل القط الأليف ، وهذا الأديب الفلسطينى الشريد كامل السوافيرى إلخ .

أكثر الحديث فى الأدب وما ننشر فى مجلة الرسالة . كان أنور المعداوى قد بدأ يكتب فى مجلة «العالم العربى» وبطريقة تحدثت عنها فى «ذكرياتى الأدبية» انتقلت كتابته إلى «الرسالة» .

وحدث أن نقل سعيد العريان إلى التدريس معاقباً . . إذ ذهب إلى لبنان فى مؤتمر ثقافى ، ولما عاد إلى مصر كتب عن هذا المؤتمر وضمن كتابته وصفاً «ماساً» برئيس الجمهورية اللبنانية ، واتهم فى مصر بالمساس برئيس دولة أجنبية وقدمه وزير المعارف (السنهورى باشا) إلى المحاكمة التى انتهت بذلك النقل وتلك العقوبة . . وكان يمكن أن يغض الطرف عن هذه «الجريمة» لولا أن الكتابة كانت فى جريدة وفدية ، والوزارة معادية للوفد . .

وعين أمين دويدار مديراً للإدارة ، وهو كاتب مؤلف ، معظم نشاطه فى التأليف للأطفال ، وانسجم معنا فيما نحن فيه «منسجمون» .

ونمى إلى المدير العام (فريد أبو حديد) ما نحن عليه ، وخاصة أن السجل لم يصدر برغم مضى المدة . . وقال : دعوهم . دعوا هؤلاء الأدباء ، فأنا ذاهب إليهم بنفسى لأرى ماذا يصنعون .

وجاء فريد أبو حديد ، واستقبلناه . . . والذى حدث أن الحديث عن «السجل الثقافى» لم يستغرق الجلسة كلها ، فقد وجه شطر كبير منها إلى الأدب ، وكان ينظر إلىّ شذراً لكتابتى عنه فى الرسالة بما لا يرضيه . . وقال لنا فيما قال : ليس النقد الأدبى هكذا . . كما تكتبون ! قال ذلك وهو ينظر إلىّ ذلك النظر الشذر ، وتابع قوله بقوله : النقد الأدبى أن تمسك بالعمل وتغوص إلى أعماقه

وتفتته تفتيتاً إلخ ، ولم نقل له إننا نفعل ذلك ، لم نقل لأننا موظفون وسعادته المدير العام ، اكتفينا بهز الرءوس إيماء إلى الموافقة وأننا استفدنا منه كأستاذ كبير . وكان سيف الإعادة إلى التدريس مصلتاً على رقابنا ، ونحن فى شبه تفرغ للأدب . . . وفى فترة لاحقة استعمل ذلك السيف فى « نحر » أنور المعداوى ! والحق أن هذا السيف كان يمكن أن يعمل به فريد أبو حديد معنا ، فأنا المناوئ فى الرسالة ، والمعداوى لم يسكت تماماً بل رفع صوته الجهورى فى وجهه ولطفنا أثره بمثل قولنا : إن الأستاذ أنور يقصد كذا ولا يقصد كذا . . . أما عندما نحر أنور فكان الناحر غير فريد أبو حديد !

كان أثر تلك الجلسة طيباً على وجه عام ، والذى « طيبه » هو الحديث الأدبى ، وأحسست أن الرجل مجروح منى . . فغفرت له ذلك النظر الشذر ومسألة الكتابة فى أخبار اليوم التى أغضبته وجعلته يتهم مصطفى أمين ، تلك التهمة كانت عن بحث له قدمه إلى مجمع اللغة العربية بصفته عضواً فيه ، بحث عن اللهجات العامية ودعوة إلى تأصيلها والتقعيد لها . وقد حملت على هذا البحث بدافع موضوعى بحت ، إذ رأيته لا يتفق مع أهدافه القومية العربية التى تقوم أساساً على وحدة اللغة العربية الفصيحة ، وامتدت حملتى إلى المجمع ذاته لأنه يجعل من أهدافه رعاية اللهجات العامية ، وهذه الرعاية لا تتفق وذلك الهدف .

* * *

تحولت شعورياً إلى صف فريد أبو حديد ، وجعلت أقدره لعدة أمور : شعورى نحوه بالذنب ، وإمعانى فى القراءة له ، كتباً ومقالات فى مجلة الثقافة . رأيته يستغل تخصصه التاريخى فى إنتاج أدبى عظيم ، روايات ممتازة مثل « الملك الضليل » و« الوعاء المرمرى » كما استوحى الأدب الشعبى فى « عنترة » و« آلام جحا » و« جحا فى جنبلاط » وفى لحظة ضعف شعورى صرح لى بأن زوجة جحا فيها تعبير

عما لاقاه فى حياته الشخصية من زوجة سابقة !

والأمر الثالث من الأمور التى جذبتنى إليه ، هو اهتمامه بخدمة الشباب فى المجال الأدبى ، إذ كانت فى الإدارة العامة للثقافة إدارة خاصة بهذا الغرض ولعله هو الذى أنشأها ، لا أتذكر تماماً ، فأنا أكتب هذه الفصول من الذاكرة البحت . كان مدير إدارة خدمة الشباب أديباً معروفاً فى ذلك الوقت وأحد رواد القصة القصيرة ، وغير معروف فى هذا الوقت مع الأسف . . وهو «عبد الله حبيب» وكان يعمل فى هذا المجال – مجال خدمة الشباب بإخلاص وبتوجيه فريد أبو حديد . وفى فترة لاحقة نحره سيف النقل إلى التدريس مع أنه لم يكن له به أية صلة . . وفى وقت ما أريد سيد قطب بهذا السيف ولكنه مات بغيره . .

نظمت إدارة خدمة الشباب مسابقات أدبية فى الشعر والقصة والخطابة ، واستكشف فى الشعر عبد العليم القبانى الخياط «الترزى العربى» بالإسكندرية . جعلت السيارة الفارهة التى يركبها المدير العام فريد أبو حديد تجوس خلال الحوارى والأزقة فى مدينة الإسكندرية ، حتى وصلت إلى دكان الخياط الشاعر ونزل الأديب منها ، واتجه إلى الخياط الشاب ، وهنأه على نيل جائزة الشعر وكانت مفاجأة مذهلة !

وفى الوقت نفسه كان عبد الله حبيب يأخذ طريقه إلى المطرية ، حسب العنوان المكتوب فى ورقة التسابق القصصى «أحمد يسرى» الشاب الأديب الطالب بكلية الطب ، لكى يهنئه بنيل جائزة القصة القصيرة ، ويسأله ما يتمنى فيجيب الشاب بأنه لا يريد إلا أن يقرأ الكتب التى يريدها ولا يملك ثمنها . .

وإذا كان القبانى قد استمر فى الإنتاج الأدبى حتى اليوم ، فإن يسرى فقدته القصة القصيرة بإعراضه وانشغاله بالطب ، على عكس يوسف إدريس الذى جاء بعده بقليل ، وأخذه الأدب من الطب .

بعث فريد أبو حديد بذلك حركة أدبية ناشطة ، وخاصة بين الشباب ، وقد استدعى كبار الأدباء لفحص المواد المقدمة فى المسابقات ولاختيار المتقدمين للخطابة ، وكان بين هؤلاء شاب ينتهى اسمه بلفظ « دياب » فقام الأديب الكبير والخطيب المفوه توفيق دياب وأعلن انسحابه من اللجنة لأن المتسابق قريبه . . وفاز الشاب « دياب » وأشهد أنه فاز بجدارة .

وكنت أرقب ذلك المهرجان الأدبى ، وأنقله وأعلق عليه فى مجلة الرسالة وأعتقد أنى أرضيت أديبنا الكبير فريد أبو حديد بما كتبته عنه وما هو جدير به فى هذه المناسبة .

ولكنى لم أنقطع تماماً عن مناوشته . . وكان من هذه المناوشة هجومى عليه أو على بحثه فى موضوع اللهجات العامية بأخبار اليوم ، كنت امرأً يقول لمن أحسن : أحسنت ولمن أساء قف !

وطبقاً لمبدأ « التفتيت » الذى أعلنه لنا فريد أبو حديد جعلت أفتش فى إنتاجه الأدبى عن ذلك « التفتيت » . . . وفعلاً وجدته يفتت فى أعماق الشخصيات القصصية التى يتناولها فى قصصه التاريخية والمعاصرة ، والأدب – كما أتصور – نقد لكل ما يجرى فى الحياة ، كما هو نقد للأدب !

ولكنى وقفت عند « لوحات » الطبيعة المتعددة فى كتاباته ، رأيته كثيراً يخرج ببطل القصة من معمعات المواقف إلى المناظر الطبيعية الخلابة ويفرط فى وضعها بعيداً عن الموقف والبطل . . كأنه يقول للقارئ : قف لنستريح هنا فترة من الزمن نتمتع فيها بهذا المنظر . . وبعد ذلك نستأنف السير مع البطل ! وهذا المسلك الأدبى شائع فى كتابات أدبائنا على وجه عام وكان يسترعى انتباهى صنيع محمد عبد الحليم عبد الله فى هذا المجال ومن حيث إنه كان « يوظف الطبيعة » فى المواقف الإنسانية المختلفة . جمال الطبيعة ومشاهدها الخلابة على العين والرأس ، ولكن لابد

أن يكون لها فعل فى التعبير عن الإنسان .

لاحظت ذلك مكثفاً فى رواية «أنا الشعب» وأبديته فى نقدى إياها ، إلى جانب ما فيها من «تفتيت» لنوازع الناس وأفسح هو صدره لهذا النقد ، إذ كانت صلتى به قد توقفت عند إصدار هذه الرواية ، بل فى أثناء كتابتها ، وأذكر أنه قال لى إبان ذلك : إننى أكتب رواية عن واحد من الشعب مكافح مثلك . . فلما ظهرت وقرأتها كنت أبحث عن نفسى فيها لعلى أجد بها بعض ملامحى !

كان قد أحيل إلى المعاش وهو فى عنفوانه ، وذهب إلى ليبيا مستشاراً ثقافياً بضع سنين ، وأظن ذلك قبل أن يتدفق البترول هناك ، ثم عاد إلى مصر وعين مستشاراً بوزارة التربية والتعليم ، وكلمة مستشار هنا تعد تسويفاً قانونياً للخدمة بعد سن المعاش ، فالواقع أنه كان بمثابة وكيل للوزارة .

والعجيب أنى رأيته فى هذه الفترة متواضعاً دمثاً موطأ الأكناف ، على خلاف ما كان أو ما توهمته أيام كان مديراً عاماً . ومن الإنصاف أن نذكر «حكم الزمن» إذ كانت الروح البيروقراطية» متغلغلة ، وكان للوظائف الكبيرة شأنها وهيبتها وأنا إلى جانب ذلك لم يذهب من أعماقى تماماً ذلك الولد الريفى الآتى من وراء الجاموسة . . والذى يشعر بحاجز حقيقى أو متوهم بينه وبين البهوات والبشوات ، بل الأفندية . . برغم أنى صرت منهم .

كان ذلك الحاجز يحملنى على أمرين متضادين : الاصطدام بهم والجرأة المقتحمة عليهم والخوف منهم وتهيبهم من بعيد . . والحلقة المتوسطة شبه مفقودة بين الأمرين .

وشيئاً فشيئاً ذهب ذلك من الأعماق . . وهأنذا صديق للأديب الكبير وللرجل الكبير بوزارة التربية والتعليم ، وتشاء الظروف أن أسافر إلى السودان فى تلك الفترة مدرساً بمدرسة المؤتمر الثانوية بأم درمان . وصدمت هناك بروتين حكومى عنيد ،

إذ قال لى الموظف بإدارة البعثة المصرية هناك : لن نصرف لك مرتباً ! – لماذا يا سيد ؟ – لأن القرار الخاص بك يقول إنك معار لا منتدب . . وما معنى هذا يا سيد ؟ – معناه أن مرتبك يصرف من الجهة التى أنت معار لها . ولكن هذه الجهة تعينها الحكومة المصرية بالمدرسين وتدفع لهم مرتباتهم – ولكن القرار الوزارى لابد أن يقول إنك منتدب حتى نصرف لك . .

وفى عصر يوم من تلك الأيام ذهبت « دائخاً » إلى النادى المصرى بالخرطوم أبحث عمن يلاعبنى « الطاولة » هناك . . فلمحت فريد أبو حديد هناك يجلس فى صدر مجلس يحيط به كبار موظفى الحكومة المصرية بالسودان . حاولت أن أتجنب هذا المجلس ، ولكن الرجل لمحنى ، فنادانى . وهب واقفاً يستقبلنى ويأخذنى بالأحضان . . . وانضممت إلى الجماعة ، وأصر هو على أن أصحبهم إلى حفل تكريم يقام له . وفى الطريق وأنا إلى جواره فى السيارة سألنى عن الأحوال ، فبثثته همى وكان معنا فى السيارة « محمود محمود » رئيس البعثة المصرية ، وهو رجل فاضل معروف بترجماته المفيدة لكتب أجنبية ذات شأن ، هو أخو الأستاذ الكبير الدكتور زكى نجيب محمود .

قال فريد أبو حديد لرئيس البعثة المصرية يعنى يا أستاذ محمود هو عباس حيشتغل هنا بدون مرتب ! . رد الأستاذ محمود لا ، لابد من تدبير الأمر . كلام « فك مجالس » لأن الروتين أعتى من أن يدبر معه أمر ! إنه – أى الروتين – يقول : لا ، هذا الموظف معار لا منتدب . . هاتوا لى قراراً بندبه .

ولما عاد فريد أبو حديد إلى القاهرة استصدر لى قراراً من الوزير يقضى بتغيير كلمة الإعارة إلى ندب . . . وكفانى شر الروتين !

فى أواخر عمر مجلة « الثقافة » رأى فريد أبو حديد العضو البارز فى لجنة التأليف والترجمة والنشر – التى تصدر المجلة – رأى أن يمدها بدم جديد ، فوصل شرايينها

بجماعة من الشباب الأدباء على رأسهم فاروق خورشيد ومعه عز الدين إسماعيل وصلاح عبد الصبور وأحمد كمال زكى وعبد الرحمن فهمى وغيرهم ، هؤلاء الذين كانوا يكونون « الجمعية الأدبية » التى نشأت واستمرت برعاية فريد أبو حديد عدة سنين وقد جذبتنى فانضممت إليها . وعاشرت هؤلاء الزملاء زمناً خصباً بالنشاط الأدبى والعلاقات الإنسانية . اتخذت الجمعية فريد أبو حديد أباً روحياً لها ، وكان هو يعتبر نفسه عضواً فيها ، راعنى وأدهشنى أن أرسل إليها مائة جنيه ، أشتراكه فيها مدى الحياة . . وكان هذا تعبيراً رقيقاً عن التبرع بهذا المبلغ الكبير جداً فى ذلك الوقت الذى كان فيه الجنيه ينطح الجنيه . .

تسلم أولئك الشباب مجلة الثقافة ، جعلوا يحررونها ، وقد بوبوها ونسقوها تبويباً وتنسيقاً جيدين . نفخوا فيها من أرواحهم وبعثوا فيها الحياة التى كادت تفقدها ، ثم أخذوها منهم ، وأسلموها إلى الموت . .

عرفت من خبرتى وتأملى أن المجلة تنشأ وتسير قوية لأنها تعبر عن زمنها وتعكس اهتمام عصرها ، فإذا تخلفت عن ركب الزمن عفى عليها الزمن . . وهذا ماحدث للرسالة والثقافة اللتين لم تحل محلهما ولم تسد مسدهما حتى الآن مجلة أدبية أسبوعية . . أسبوعية بالذات !

عندما عادتا حوالى سنة ١٩٥٤ تصدران عن وزارة الثقافة ، وأسندت رياسة تحرير الرسالة إلى الزيات ، والثقافة إلى فريد أبو حديد – عند ذلك صدرتا شبه ماكانتا تصدران فى زمنهما الأول ، فكانت صحوتهما صحوة الموت . .

كنت لم أر فريد أبو حديد منذ سنين ، ثم رأيته لما أسندت إليه رياسة تحرير الثقافة ، فماذا رأيت ؟ أين البسمة القوية المتفائلة ؟ أين الفتوة المفتنة ؟ أين العزيمة الواعدة ؟ ذهبت كلها وا أسفاه !

قيل إنه يعانى المرض ، وكان يتجشم الحضور إلى إدارة المجلة بصعوبة وحاولت

أن أستدر شيئاً من مرحه وبشاشته ، فلم أفلح . كان ينظر « ساهماً » كأنه يتأمل الدنيا وعبثها ، أوكأنه يرى مجرد الحديث فى شئونها عبثاً فى عبث . .

ومع ذلك كتب مقالات جيدة كعادته ، لم يضعف ذهنه كما ضعف جسمه ، ولكنه اضطر إلى ترك المجلة لبعض المحررين الموظفين وهو معتكف فى بيته بالمطرية وزرته هناك ، فحزنت لحالته الصحية التى لم تكن على ما يرام . ولما حدثته فى أمر مرضه وإمكان علاجه قال إنه استنفد ما عند الأطباء فى مصر . وأبت نفسه أن يقول أكثر من ذلك . . . وخطر لى شىء ، ذهبت إلى الدكتور محمد عبد القادر حاتم وزير الثقافة إذ ذاك وحدثته بمرض الأستاذ الكبير فريد أبو حديد . فقال إنه على استعداد لأن يتخذ ما يلزم لعلاجه فى الخارج . وطلب منى أن أبلغه ذلك . وعدت إلى الأستاذ الكبير لأبلغه . نظر إلىّ نفس النظرة « الساهمة » ثم قال : ولكن لابد لى من مرافق ، وزوجتى هى التى يمكن أن ترافقنى ، فهل تتكفل الوزارة بنفقاتنا مع نفقات العلاج ؟ قلت : أعتقد ذلك ، وعلى أى حال سأذهب إلى الوزير وأبدى له ذلك ، وأرجو أن تستعد للرحيل حتى آتى بالموافقة على كل ما ترغب . .

ولا أنسى نظرته « الساهمة » التى تنطق بمعان أخر . كانت تقول فيما تقول : وا أسفاً على أن بلغ بى الحال أن تعالجنى الحكومة على نفقتها .

وتذكرت وصية العقاد لذويه قبيل وفاته : أن ينقل جثمانه إلى أسوان مسقط رأسه على نفقته ومن ماله ، والحذر من أن يكون ذلك على حساب الحكومة !

تلك أخلاق ومثل هى من خير ما تركوا لنا ، مع تراثهم العظيم .

ذهبت إلى مقابلة الوزير . وفى هذه المرة أجلست فى حجرة كبيرة مع المنتظرين الكثيرين وأريد لى أن أنتظر مقابلة السيد / مدير المكتب . . لكى يستأذن لى فى

مقابلة السيد النائب : نائب رئيس الوزراء ، أو بالأحرى يحدد لى موعداً للمقابلة . . . وأنا أعلم أن مدير المكتب الحاج فلان كان «صولاً» فى الجيش وأنا لا أحب «الانضباط» الذى يتمسك به العسكريون ، هذا عيب فىّ أنا . .

قلت فى نفسى : ولكنك لا تطلب شيئاً لنفسك ، فتمهل وانضبط .

ولكنى لم أطاوع نفسى وانصرفت . . لا أدرى ماذا أفعل . .

ثم فجعت بالنبأ ، كان الرجل يستعد للرحيل . . لا إلى السفر للعلاج بالخارج بل إلى النهاية المحتومة . .

كان كعادته دائماً حلالاً للعقد . .

محمد عبد الحليم عبد الله

في بلدنا هذا ، وقد يكون في غيره كذلك ، أن الإنتاج الأدبي لا يكفي وحده لكي يبلغ ما ينبغي له من ذيوع بين الناس ، ولكي ينال صاحبه ما هو أهل له من تقدير بين الأدباء وسائر الناس ، بل لابد إلى جانب ذلك من شيء يفرقع . . شيء من أشياء متعددة منها الاشتغال بالصحافة ، بحيث يطلع الكاتب من خلالها على القراء بما يثير انتباههم ، بحيث يقول لهم : أيها الناس ، هأنذا . .

ولكن الاشتغال بالصحافة – إن أخذ حقه من الوجهة الصحفية – يشغل عن الأدب ، إذ لا يدع لصاحبه وقتاً كافياً للاطلاع أو الإنتاج الأدبي الذي هو بحق أدب ، وهو على أي حال « يلمع » اسم الأديب ويكسبه ما يسمى « الشعبية » ويقع في فهم كثير من الناس خلط الكتابة الصحفية بالكتابة الأدبية .

ومن تلك الأشياء اللازمة لشيوع الإنتاج الأدبي وذيوع اسم صاحبه توثيق

الاتصال بأبناء صاحبة الجلالة الصحافة ومن يماثلونهم فى الكتابة النقدية الأدبية بالصحف ، وقد يختفى من هذا الاتصال الشرف والكرامة . . باتباع وسائل لا تتفق معها ، منها المداهنة والمنافقة ، وقد يبلغ الأمر أسوأ ما يبلغ ببذل ما هو فى الحقيقة «رشوة» وإن كان يطلى بما يخدع عنها ويخفيها . .

ومن تلك الأشياء أيضاً أن يكون «الممدوح» فى وظيفة أو مكان يملك فيه ما يسيل له لعاب المنافقين .

والعملة المتداولة الرائجة فى كل حال ، السافرة المعادية فى غير حياء ، هى تبادل المنافع ، والمنافع أنواع ، منها تقارض الثناء .

والسؤال بعد : ماذا كان موقف محمد عبد الحليم عبد الله من كل ذلك ؟ لقد ذاع أدبه وانتشر بين الناس ، برغم أنه لم يكن شيئاً من ذلك ، وبرغم إصراره على الوقوف بعيداً عن بحر العفن ، يشاهد ويتأمل ويحاذر أن يبتل . .

لم يشتغل بالصحافة ، ولم يتخل فى اتصالاته وعلاقاته عن فضائله الريفية ، وهذه الفضائل انعكست فى أدبه وعطرته بشذاها النفاذ ، فجذب إليه الأنوف التواقة إلى العطر ، وأرغم أنوفاً أخرى على الالتفات إليه والاهتمام به .

وأشهد أنى كنت من الأنوف الأخيرة . . . كان أول ما رأيته موظفاً بمجمع اللغة العربية الذى ظل به طوال حياته الوظيفية حتى توفى . وكنت أنا طارئاً على المجمع آتياً من التدريس بالمدارس ، واختير المجمع مقراً لعملى الجديد وإن كان العمل تابعاً لإدارة الثقافة بوزارة المعارف . وأول ما أثار انتباهى إليه هو استثثاره باهتمام بعض الزملاء الأصدقاء لى من قبل . وداخلنى الشك فى أن يكون ذلك مجرد مجاملة لزميل .

– يقال . . . تعال يا عباس نسمع قصة من عبد الحليم :

قالها الصديق المتكلم وهو يعطى سمعه كله لذلك الفتى القصير الضئيل الجسم

الذى يمسك بالورق ويشرع فى القراءة وسمعت ما أقنعنى بأنها ليست مجاملة.

إذن فهو يكتب قصصاً، والزملاء بالمجمع يستمعون إليه، فلم يكن بدأ ينشر بعد، لم يكن عرف على نطاق يجاوز الأخصاء، وصرت أنا من هؤلاء الأخصاء. ومرة أخذت منه واحدة: قصة قصيرة، وقدمتها للأستاذ الزيات لكى ينشرها فى «الرسالة» ولم تنشر ولم يسألنى عنها وغض الطرف عن عدم نشرها، بل غض الطرف عن النشر فى الرسالة، وكان ذلك غاية المنى عند كل أديب فى ذلك الوقت. ولكن عبد الحليم عزف عن هذا الورد لأنه شعر بأنه منع منه... وظل يكافح ويصور المكافحين فى قصص، الذين يعانون الفقر والحرمان، - ويلاقون الظلم والاضطهاد، فلا يحرفهم ذلك عن الخط المرسوم.

حدثنى عبد الحليم فى مناسبة عن الفقر المدقع الذى نشأ فيه، وصرح بأن هذا الفقر كون لديه «عقدة» هى أن يحرص على ما يكسبه من مال قليل أو كثير لكى يحافظ على ماء الوجه الذى يضطر بعض الفقراء إلى بذله... والذى لا يقدر بمال. ولحظت أن حرصه لم يبلغ به درجة «العقدة» فلم يعد الأمر تجنب الإسراف وحسن التدبير، وقد كان ينفق ويرعى من يحيط به من ذوى الرحم وغيرهم. ولم أرفى القاهرة رابطة أقوى مما رأيت فى علاقات عبد الحليم عبد الله بذوى قرابته الذين كانو يلتفون حوله ويرتبطون به ارتباطاً امتدت آثاره الحسنة إلى... تصديق له. كنت قد كتبت شيئاً يعزز موقفه فى أزمة وظيفية عرضت له، فهالنى أن أرى - من حيث لا أحتسب - أن ذويه ينظرون إلىّ نظرة أعرفها... أعرفها تماماً فى قريتنا عندما يشد أزرك صديق أو قريب بوقوفه إلى جانبك مشهراً نبوته.. وقد ينال هذا النبوت رأس بعض القوم الظالمين.

* * *

عرف عبد الحليم عبد الله بكتبه «أبو الجوائز» لأنه ظفر بعدد من جوائز وزارة

التربية والتعليم ، ثم بجائزة الدولة التقديرية ، ويشاء القدر الساخر أن تقسم هذه الجائزة بينه وبين الرجل الذى أبى نشر قصة قصيرة له فى مجلته . . . هو الزيات صاحب « الرسالة » وأغلب الظن بل اليقين أن الزيات نفسه لم يعرف أن قسيمه فى جائزة الدولة التقديرية هو واحد من كثيرين لم ينشر لهم . . . قد يكون رأى القصة غير صالحة للنشر ، وقد يكون « دشتت » دون أن يلتفت إليها ، حدثنى على متولى صلاح أنه كان قريباً منه وملازماً له فى فترة ما بالمنصورة ، وكان يوكل إليه وإلى طاهر أبو فاشا الذى كان يزورهم هناك أحياناً – يوكل إليهما اختيار مواد « العدد » مما وصل إليه بالبريد ، ويبعث بالمواد المختارة إلى محمد عبد الرحمن القائم على المجلة بالقاهرة ويرمى بباقى المواد إلى فرع دمياط المار بالمنصورة وهم يجلسون على شاطئه تحت شجرة كافور حيث قهوة هناك اشتهرت بمجلس الزيات فيها واستقطبت كثيراً من أدباء المنصورة وغيرهم ، لم يكن نهر دجلة وحده فى عهد التتار الذى ألقيت به المؤلفات . . فانظركم أكلت الأنهار من بنات الأفكار !

* * *

حينما كنت أكتب باب « الأدب والفن فى أسبوع » بمجلة الرسالة إعلاناً عن فيلم مأخوذة قصته من رواية « لقيطة » وهى أولى روايات عبد الحليم عبد الله . لم يسم الفيلم باسم الرواية ، بل وضع له اسم آخر أغلب الظن أنه « ليلة غرام » وذهبت إلى دار العرض وشاهدت الفيلم ، ثم كتبت عنه ، دخلت إليه هذا المدخل : فى فترة ماضية خدعت بأن السينما المصرية فن ، وتابعت أفلامها بالكتابة عنها فى مجلة الرسالة ، برغم اعتراض البعض ، ولكن ظهر لى بالتجربة أن الاعتراض فى محله . . . فكففت عنها . وأخيراً رأيت هذا الفيلم « ليلة غرام » فوجدته شيئاً آخر غير تلك الأفلام .

سر عبد الحليم مما كتبته عن قصته ، وأعرب لى عن سروره وشكره وسررت

بسروره . . . سررت بأن قلت كلمة الحق فى هذه القصة ، وكان بعض النقاد أخذ عليها «المصادفات غير الواقعية» فبينت أن ما فيها من مصادفات لا يختلف عن الواقع ، وقلت إن الحياة لا تخلو من المصادفات ، بل هى أحياناً تشتمل على أكثر مما فى القصة .

* * *

داخلنى شك إزاء ما ناله عبد الحليم عبد الله من كثرة الجوائز لا لأنه لا يستحقها بل لتتابعها ولما يلابس الجو الذى تعطى فيه الجوائز من أشياء خارجة عن قيمة العمل الأدبى فى ذاته ، فكتبت فى «جولة الفكر» بأخبار اليوم أشكك فى استحقاق تلك الجوائز ، وأسوق بعض الدلائل على ما يشوب هذا الاستحقاق .

تأثر عبد الحليم من ذلك غاية التأثر . . . وفى هذه التجربة القاسية عرفت فيه فضيلة جديدة ، هى التسامح ، أو قل الكفاح بالكلمة الطيبة والروح الطيبة . وكان هذا من أسلحته فى الكفاح . . . كان يشهر هذا السلاح فى وجه المخالف والموافق على سواء .

كان يؤمن بأن الكلام له أوجه مختلفة إن كانت الحقيقة واحدة ، أذكر ندوة أدبية دعت إليها جمعية الأدباء ، وكان هو مدير هذه الندوة كان الخلاف والنقاش والمنازعة قد طالت واستفحل أمرها بين الناقدين محمد مندور ورشاد رشدى ، كان محور النقاش بين الفريقين ، فقد كان لكل منهما أنصار – شيئاً هلاميا . . . هل يكون موضوع العمل الأدبى من الخارج أو من الداخل ؟ وراح مدير الندوة القصير الماكر عبد الحليم عبد الله يعمل مكره فيحاور كلا من الناقدين ويقربه إلى الآخر . . . وينتشل من بينهما أسباب الخلاف ، حتى تبين أن «الخلاف» مزعوم وأن موضوع الأدب موضوع فيه . . . وأن تصورى من الداخل أو من الخارج لا يقدم ولا يؤخر . . . والصلح خير وأبقى ، وانتهت المباراة بغير صالح أحد

الطرفين . . . صفر لصفر !

كان ذلك من المكر الحسن الذى كان يتصف به أديبنا القصير القامة الضئيل الجسم محمد عبد الحليم عبد الله ، وأذكر أن كنا فى بيروت لمؤتمر كتاب آسيا وأفريقيا ، وكانت معنا الكاتبة الأديبة الصحفية أمينة السعيد ، وكانت كلما التقت بعبد الحليم تقول له مداعبة : «ياأذع» بضم الهمزة وهى كلمة فى العامية تقولها المصريات فى شتم قصير القامة . وكان يستعذبها منها فيستزيدها .

وفى بيروت وقفت على جانب خفى فى حياة عبد الحليم عبد الله ، إذ رأيت هناك معجبات به . . . على الرغم من «أذع» أمينة السعيد ، معجبات قرأن رواياته وعرفن وجوده فى المؤتمر فهرعن إليه ، وماكنا نجلس فى بهو الفندق حتى نرى أولئك الحسان يقبلن على عبد الحليم عبد الله . ولا يخلو الحال من «غزل» يقع بين الكاتب وقارئته الحسناء ، فقد كان غزلاً (بكسر الزاى) وكان يخلط الغزل بالمكر الحسن ، فينتج من هذا الخليط شىء ظريف حقاً . . . ولا أنسى يوماً صاحبتنا فيه صديقة من هؤلاء إلى السوق تلبية لدعوة عبد الحليم كى ترتاد بنا المحال التجارية وتنتقى بعض المشتريات التى تخص السيدات .

وعرفت هناك أن سعاد حسنى صديقة لعبد الحليم عبد الله وكانت ببيروت فى ذلك الوقت لأعمال سينمائية . وماكان أمتع مجلس يضم سعاد حسنى وعبد الحليم عبد الله . . . ويجرى الحديث به فى عالم الأدب وغيره .

* * *

كان عبد الحليم عبد الله أديباً ، إن قلت من قمة رأسه إلى أخمص قدمه كما يقولون . . . ظلمته . فلم تكن هذه الكتلة الضئيلة المادية كافية . . . كان سعيداً بالأدب كل السعادة ، يقال إن بعض العلماء يجرون تجارب على الفئران بحيث تشعر باللذة إن هزت جهازاً مركباً على المخ فى منطقة اللذة . وقد نجحت التجربة إلى

درجة أن الفأر يرفض الطعام الشهى ولا يستجيب لمغريات الجنس عن طريق أنثاه مفضلاً أن يهز ذلك الجهاز بأرجله ويموت من اللذة !

كذلك كان عبد الحليم عبد الله . . . يضغط «الأدب فى مخه» ويعيش على ما يحدثه فى نفسه من شعور جميل . . . كنت إذا لقيته فوجدته فرحاً مرحاً أعرف أنه يكتب رواية ، وإذا رأيته مبتئساً شاكياً من مرض أو من لؤم أحد الناس أعرف أنه لا يكتب . . . كان يقول لى إنه فى فترات «الجدب الأدبى» أى تلك الأوقات التى لا ينتج فيها يحس أنه كاليتيم البائس الذى لا يحنو عليه أحد . . . وهذا تشبيه من تشبيهاته التى لا يتركها . سواء فى كتاباته أو فى أحاديثه والتى يغرق القارئ فى بحورها . وكثيراً ما يوفق فى تجلية المعنى الذى يقصده عن طريق التشبيه ، وفى بعض الأحيان لا يوفق فيكون مملا ، ويكون من السلامة أن تعدى عن هذا التشبيه أو ذاك فى كتابته ، وتمضى فى القراءة كأنك لم تسمع ولم تر تشبيهاً .

ومن أخطاء النقاد عندنا أنهم «شبهوا» عبد الحليم عبد الله بالمنفلوطى والزيات فى أنه سلك مسلكاً فى الصياغة الأدبية ، وقال قائلهم وهو يخفى فى نفسه خبث المرمى : إنها أسرة واحدة ، جدها المنفلوطى الذى أنجب الزيات الذى أنجب عبد الحلم عبد الله ، والخبىء فى هذا الكلام أن كتابات هؤلاء – وفى جملتهم عبد الحلم مما يسمونه «أدب الكساء» ويعنون به أنه لا يؤدى مضموناً جيداً أو بعبارة بسيطة : يهتمون باللفظ على حساب المعنى !

وما أبعد ذلك الكلام عن الصواب . . . فعبد الحليم عبد الله له خصائص أخرى بعيدة كل البعد عن ذينك الكاتبين ، منها الإفراط فى التشبيه ، واستخلاص الحكم والعبر مما يحلل ويعوض إليه من المعانى ومشاعر النفس الإنسانية . وأعتقد أن الطلاوة اللفظية متوافرة عند المنفلوطى والزيات . كل فى مذاق زمانه أكثر مما فى كتابة عبد الحليم ، وهذه الكتابة أقرب إلى الدوام فى الأزمنة المختلفة ، فعبد الحليم

عبد الله يقرأ له قارئ الأدب بعد زمنه ويقبل عليه أكثر مما يفعل بالنسبة إلى المنفلوطى والزيات .

وقد لاحظت أن مداخل الروايات عند عبد الحليم عبد الله فاترة ومملة بعض الشيء . ثم لا يلبث السياق أن يحمى ويستميل القارئ . وسألته عن ذلك بصراحة ، فهو عيب من حيث إن الكاتب القصصى عليه أن يجذب القارئ منذ البدء ، وأجاب بصراحة أيضاً ، قال إنه عندما يبدأ كتابة رواية يكون خائفاً متهيباً . . كأنه لا يصدق أن سيكتب شيئاً ذا قيمة ، وشيئاً فشيئاً يذهب ذلك التهيب ويمسك بالزمام ويتحكم فى الاتجاه .

وفى أثناء كتابة الرواية – كما حدثنى – يندمج فى جوها ويعيش وقائعها ، حتى ليبدو الجو المحيط به خلال ذلك غريباً عليه . . . ومن هنا يستطيع القول بأن عبد الحليم عبد الله وزع نفسه قطعة قطعة على رواياته وقصصه القصيرة ، فإنك تجد منه ملمحاً فى قصته ممزوجاً بملامح أخرى ، وملمحاً آخر ممزوجاً بآخر فى قصة أخرى . . . وهكذا .

فى معظم رواياته وقصصه نجد أفراداً يعانون الفقر والحرمان كما كان يعانى ، ويلاقون الظلم والاضطهاد كما كان يلاقى . . والصفة الثابتة التى يضفيها عليهم من نفسه أن ذلك لا يجرفهم إلى انحراف ، بل يظلون على قيمتهم ولا يحيدون عنا مهما لاقوا فى سبيلها . ومن أمثلة هؤلاء بطل رواية «للزمن بقية» والبطل هو «صلاح النجومى» الذى واجه فى كفاحه الشريف أقرب رجلين إليه ، وهما أبوه العمدة المتجبر وأخوه الذى حذا حذو الوالد وخلفه فى «العمدية» لاقى صلاح النجومى ما لاقى من الحرمان والشقاء فى سبيل أهدافه التى تتركز فى أن الفلاح الصغير المهضوم الحقوق إنسان مثل سائر الناس جدير بأن يعيش كما ينبغى أن يعيش الإنسان . وامتد كفاح صلاح النجومى إلى العاصمة ، إلى القاهرة وكافح فيها

أنماطاً مختلفة من السياسيين الذين يموهون على الناس بالشعارات الزائفة ويدعون أنهم أنصار الفلاح وهم فى الواقع أعداؤه الحقيقيون ، لأنهم يستغلون اسمه ويسرقون ثمار جهده وعرقه .

ومعظم شخصيات قصصه تنتقل من الريف إلى القاهرة ، مثل ما فعل هو ، فكافح مثل ماكافح ، على اختلاف فى نوع الكفاح .

والملامح التى يخلطها بملامحه يأتى بها من الواقع ، مما يحيط به فى حياته ، أذكر أنى جلست عقب صدور روايته الأخيرة «للزمن بقية» وعقب قراءتى إياها ، فكنت أسأله : فلان هذا أليس هو فلاناً ؟ وأنا أشير بذلك إلى بطل فى القصة عرفته فى واقع الحياة كما عرفه ، فيقول لى : إنه هو ، ثم يردف «ما انت عارفهم كلهم» وأقول : صحيح فلان هو فلان ويضيف هو أيضاً : وفلان هو فلان . . . إلخ .

والمسألة ليست مسألة نقل الأشخاص بحالهم من واقع الحياة إلى المجال القصصى ، وإنما هى عملية خلق يتصرف فيها بفنه حتى لو قرأ أولئك الأشخاص الرواية وفيها وصف أنفسهم فإنهم لا يعرفون أنفسهم !

والذى يعرف عبد الحليم عبد الله ، ويعرف ما وقع له فى مراحل حياته ، وما غامره من أفكار ومشاعر يستطيع أن يضع يده على مواضع كثيرة فى قصصه تعكس ما عاشه ورآه وفكر فيه وشعر به . وسألته مرة عما شغل مساحة كبيرة من قصصه فى تصوير الشك فى النساء وعدم الثقة بهن ، فقال لى : إن أصل هذا الشك بذرة صغيرة غرست فى نفسه وهو صغير ، كان عندهم بالقرية خادمة كبيرة جميلة ، وكان يخرج معها أحياناً ، فيراها تسير بدلال وإغراء ، والرجال يغازلونها ، فتنتشى بغزلهم ، ثم رآها فى مناظر تدل على استجابتها للغزل غير البرىء . . ولم يذهب ذلك من نفسه ، بل غذته تجارب ومشاهدات فى القاهرة

أول شبابه . ولكن حدث له بعد ذلك تجربة حب كبيرة ، فيها صدق وإخلاص ووفاء ، فأزالت من نفسه الشك ، وحل محله الحب الصافى العميق وقد وزع ملامح التى أحبها فى الواقع وصفاتها على شخصيتين فى روايتين : الأولى السيدة فى رواية (شمس الخريف) التى تغد نموذجاً رائعاً للكفاح الشريف ، والشخصية الروائية الثانية التى أخذت القسم الثانى هى (الست جليلة) فى رواية «من أجل ولدى» .

* * *

إذا لم يكن عبد الحليم عبد الله فى حالة (لذة) بأدبه وكتابته وما صدر له من كتب ، فاعلم - وإن كان فات أوان العلم - أنه يضغط مفتاح الألم فى مخه ، فيوحى إليه بالأمراض والآلام الحسية والنفسية ، وكثيراً ما رأيته على الموائد الفاخرة ينحى الأصناف الفاخرة ويطلب جبناً إن لم يكن موجوداً على المائدة . وكان يكثر من أكل الجبن مؤتدماً بالخبز ، والعجيب أنه لم يكن يستريح على «اللبن الزبادى» مع خفته على المعدة ، وهذا عجيب عند الناس ، وليس عجيباً عندى فأنا مثله فى هذا ، وإن كنت لا أكثر من أكل الجبن . لأنه يثقل على معدتى ، ولله فى خلقه شئون .

ونعود إلى عبد الحليم عبد الله . الذى لم يكن لى صديق مثله أو - حتى لا يغضب صديقى فلان - أقول إنه كان مثله ، والحى أبقى ، بارك الله لى فيه . . . أى فى صديقى الحى .

كان يشكو مر الشكوى من صديق يلى أمر السينما ، لأنه لا ينجز إخراج قصته المتفق عليها فيلماً ، وكنت أقول له :

- ألست قد أخذت ثمنها ؟

- هذا هو الذى يعذبنى .

– أو ليس فلان هذا صديقاً ؟

– وهذا أيضاً يعذبني . . . إن الصداقة الخالية من المنفعة صارت عائقاً !

مما يؤلم النفس أن الصداقة عند بعض الناس تسير على سطح التبادل ، وأنها تقف حيث تسير المنفعة . وحكمة الصديق «أن الصداقة الخالية من المنفعة صارت عائقاً» معناها أن المرء المستولى على أمر يؤثر غير الصديق لأنه «يعامله» بصراحة معاملة تمنع منها الصداقة عند الصديق الخجول . . «والخجل» هنا معناه وقف الحال . . .

والظن القريب من اليقين أن عبد الحليم عبد الله كانت تركبه كل هموم القاهرة وهو فى طريقه إلى الاستجمام بقريته (كفر بولين) حيث كان فى عاصمة المحافظة «دمنهور» يحتد فى مناقشة سائق (التاكسى) احتداداً أفضى إلى وفاته . . .

فهل كانت الهموم تلاحقه لأنه كان لا يزال ضاغطاً على مفتاح الألم فى مخه الذى تفجر بفعل القشة التى قصمت ظهر البعير . . . !

إنه – على أى حال – عمر قد انتهى . ولو قدر له أن يحيا بعد وأن يحال إلى التقاعد قبل موته ، لتبين له – كما تبين لى – أن كثيراً مما كان يهتم به ويتألم له تفاهات لا تساوى شيئاً من فقد الأعصاب . . .

كامل الشناوى

حينما تعارفنا كبيرين - كامل الشناوى وأنا - فى جريدة الأهرام سنة ١٩٥١ لم يكن هو يعرف أن معرفتى به قديمة .. قبل أن يكون شاعراً لامعاً ، وقبل أن أكون أنا ما كنت ، بزمن كثير..

هو يعرف الآن - فى ذلك الآن - أنى أنا الذى يكتب فى مجلة الرسالة باب « الأدب والفن فى أسبوع » ويعرف أنى ذلك . . الشقى « الذى نقد أبياتاً له ألقاها فى حفل أقيم لتكريم أم كلثوم ، واشترك فيه بالكلمات والقصائد كثير من الأدباء والشعراء ، ولكنه لايعرف ما وراء ذلك ، لايعرف ذلك « المجاور » ابن الفلاحين الذى كان يرقبه فى مسجد المؤيد القائم على رأس شارع الغورية بجوار باب زويلة بالقاهرة . حيث كنا نطلب العلم وقد بلغنا السنة الرابعة ، نهاية القسم الأولى من الأزهر . وكان ذلك المسجد هو المكان المختار لتلقى دروسنا فى حلقات ، كل حلقة

منها تلتف حول شيخ يجلس على كرسى خشبى كبير ، وتسمى « فصلا » والحلقات أو الفصول متجاورة لايفصل بينها فاصل غير قليل من الفضاء ، وهى بطبيعة هذا الوضع متسامعة ، والغلبة فيها على السمع للصوت الجهورى ، وكذلك كان صوت « الشيخ كامل » الطالب الضخم الذى يتميز على باقى الطلاب ذوى الجلابيب الفلاحى أو البلدى والقلنسوات المعممة وغير المعممة على الرءوس يتميز بجبته وقفطانه الأنيقين وعمته « المقلوظة » على طربوش يختلف – وخاصة زره الأخضر – عن طرابيش الأفندية .

كان ذلك الزى المتميز بين الطلاب يدل – فى الغالب – على أن الطالب من أبناء المشايخ ، وصاحبنا هو ابن الشيخ الشناوى .

لم أكن قد رأيته من قبل فى السنوات الدراسية الماضية بمسجد إبراهيم أغا ولا بمسجد المردانى ولا بمسجد الفكهانى ، حيث كنا فى سنوات الدراسة ننتقل بالنجاح فى الامتحان من واحد إلى آخر ، حتى بلغنا فى السنة الرابعة مسجد المؤيد ، حيث أراه الآن ، لأنه « بايت » يعيد السنة الرابعة .. وقالوا فى تعليل ذلك إنه طالب « لعبى » برغم ذكائه . وحينما سمعت صوته الجهورى الغليظ يأتى إلينا من الفصل المجاور كان يلقى موضوع الإنشاء الذى كتبه وأعجب المدرس وطلب منه أن يقف ويلقيه .. والطلاب مبهورون به يستمعون ..

ولم أره فى ذلك الإبان إلا قليلا ، فقد كان يتغيب كثيراً ، ثم ترك الدراسة الأزهرية وانغمس فى حياة أخرى ، فلم يكن معنا فى القسم الثانوى ولافى غيره .

سمعنا باسمه يعوم على سطح الحياة الأدبية .. قصيدة تنشر هنا ، وكلمة هناك ، ولما يئس أن ينشر له الزيات فى الرسالة بعث إليه بقصيدة موقعة باسم غريب على السمع المصرى ومقرون ببلد عربى بعيد .. لعله « حضرموت » أو « لحج » أو ما أشبه .

وكان قد عرف عن الزيات أنه يؤثر النشر لـلإخوة العرب غير المصريين ولو كان مستوى ما ينشر أقل .. حتى تنتشر المجلة فى بلادهم ، وقد أعدها للتعبير عن جميع العرب بحيث تكون مجلة العرب أجمعين ، فكانت «رسالة» من العرب للعرب فى كل مكان. نشرت القصيدة فى الرسالة ، وكانت «مقلباً» من «المقالب» التى اشتهر بها كامل الشناوى ، وسبقت شهرته بها كل شهرة . ومن هذه . «المقالب» ما صنعه مع السيد/ حسن القاياتى ، كان هذا الشاعر معروفاً بتوليد المعانى والغوص على الأفكار الغريبة وكانت «الأهرام» ترحب بكل ما يبعث به إليها . وكان شعره قطعاً من أبيات قليلة يعنى فيها ببث فكرة طريفة فصنع كامل الشناوى أبياتاً تحكى مذهب القاياتى فى الشعر ، ويدل عنوانها عينه ، وهو «دمع الصخور» وأرسلها إلى جريدة الأهرام فنشرت .. ونشرت فى اليوم التالى كلمة للقاياتى ينفى فيها نسبة تلك الأبيات إليه ، وفى آخر الكلمة «انظروا دمع من هذا ؟»

* * *

كنت أبحث عن حجرة أسكن بها ، تكون قريبة من دار العلوم ، إذ كنت طالباً بها وكانت فكرة أن أركب سيارة «أتوبيس» أو «ترام» مبعدة تماماً من برنامجى اليومى ، لسبب واضح هو أن قرشين فى اليوم أمر باهظ لاقدرة عليه ، وأجرة السكن القريبة أو غير الموغلة فى البعد لاتكلف أكثر من خمسين قرشا فى الشهر . وقد كان أستاذنا «زكى المهندس» يعيب على جيلنا أنه جيل «خرع» ويذكر أنه كان يمشى يومياً ذهاباً وإياباً من العباسية حيث يقيم إلى دار العلوم فى حى المنيرة ، دون أن يفكر فى ركوب الترام .

وبينما أنا كذلك أبحث عن مسكن قال لى زميل فى الدراسة .. أتعرف كامل الشناوى ؟ فى بيتهم حجرة : مندرة فى مدخل البيت الكبير معدة للإيجار .

ذهبت أنا وذلك الزميل إلى بيت الشيخ الشناوى فى «جنينة ياميش» بحى

السيدة زينب . الحجرة لاتزال مشغولة ، ويقال إن ساكنها « سيعزل » وقيل لنا إن صاحب الأمر هو كامل الشناوى ، وهو الآن فى الحمام ، وكان ذلك قبيل الظهر . وصعد بنا الخادم إلى حجرة الاستقبال فى الطابق الثانى ، وبعد قليل أقبل كامل ، شاب ضخم .. هو الشيخ كامل الذى رأيته فى مسجد المؤيد يقرأ موضوع الإنشاء ، والذى نسمع الآن أنه صار أديباً وشاعراً . وهو الآن يلبس « روب دى شامبر » فوق المنامة الحريرية . وقلنا له ، وقال لنا ، والمهم أنه كان ظريفاً لطيفاً معنا ، ولا أذكر لماذا لم يتم تأجير الحجرة ، ربما لأن الساكن لم « يعزل » وقد يكون ذلك لأنهم احتاجوا إليها لسكنى بواب أو بستانى أو نحو ذلك .

ترك كامل الشناوى الدراسة فى الأزهر ، كما ترك من قبلها الدراسة الابتدائية التى قضى فيها سنتين ، ولم ينل أية شهادة دراسية . وراح يقرأ على هواه مايطيب له ويحفظ ما يطربه من الشعر ، ويلهو ما شاءت له حريته ونشأته فى ظل أبوين على شىء غير قليل من اليسار . ويبدو أن والده لم يكن يضيق عليه ، ولم يكرهه على دراسة معينة ، وخاصة لما رآه يميل إلى الشعر والأدب ، وكان الوالد على شىء من ذلك إلى جانب دراسته فى الدين والقانون ، إذ كان قاضياً فى المحاكم الشرعية .

وعلى ذلك قضى كامل صدر شبابه يلهو ويمرح ، ويدبر « المقالب » لايعفى منها أقرب الناس إليه . كان والده صديقاً للدكتور محجوب ثابت ، وكان الدكتور يزوره فى المنزل ، فانقطع مدة ، وفكر كامل فى أن يدبر « مقلباً » فجمع بعض أصدقائه وزملائه فى جمعية المسرح التى كانوا قد ألفوها فى « جنينة باميش » وعملوا له « مكياجاً » فلبس لحية مستعارة « وكبس » الطربوش على رأسه على طريقة الدكتور محجوب ، وأمسك بعصاً .. وقصد إلى زيارة الشيخ الشناوى ومعه حاشية من الأصدقاء ومثلوا موكب محجوب ثابت .. وصعد الموكب إلى غرفة الاستقبال . وجاء الشيخ وسلم وجلس ، ودار الحديث والسؤال عن الصحة والأحوال وفرقعت

« القافات » فى فم الدكتور المزيف ، وكان محجوب ثابت يتكلم دائماً بالقاف ، حتى كانت تكتب عنه المجلات الهزلية « الدقتور » ثم تبين الوالد صوت ولده بين القافات المتتابعة ، وانكشف الأمر ، نهض الشيخ وأخذ العصا من ولده ليضربه بها ولكن هذا أسرع بالجرى ..

وكان جرى كامل مضحكاً . . إذ كان ضخماً ممتلئ الجسم وقد ولد كذلك ، ولازمته البدانة والنهم فى الأكل طوال حياته ، وكانت فى طفولته مصدر خجله منها وسخطه عليها ، على الرغم من فرح الأسرة بها ، إذ اعتبروها من علامات الصحة ، فكانوا يخفونه عن عيون الناس حتى لايناله شر الحسد .. فلما كبر وصار يلعب مع الأولاد كانوا يعيرونه ويسخرون منه إذا جروا فى الشارع ويحاول هو أن يجاريهم .. فانزوى عنهم وتهيب الناس .

وكان شعوره إزاء تلك السخرية ولجوؤه إلى العزلة من الدوافع إلى الرغبة فى التفوق والتميز بشىء يجعل له اعتباراً يعوضه ، فكان أن قوى فى نفسه حب الشعر والأدب وكانت العزلة فرصة للتأمل والتفكير والانهماك فى القراءة .

ولكن أصدقاء الطفولة عندما كبروا وعقلوا قدروا ما فى زميل الصبا من مواهب وذكاء وروح مرح ونفس طيبة ، أسبغوا عليه تقديرهم وإعزازهم ودفعوه إلى المجتمع وأزالوا من نفسه التهيب فانقلب إلى العكس .

كان كامل الشناوى « مكعبراً » ضخماً لاحظ له من جمال الجسم ، ولكنه كان ودود النظرة لطيف الشمائل ، ولعله بهذا ولسخائه المفرط كان موفقاً فى العلاقات النسائية ، وخاصة مع فتيات الملاهى ، وكان يشعر إزاء واحدة منهن بحب على طريقة « أورمان دوفال » مع « مرجريت جوتيه – غادة الكاميليا » .

ولكنه لم ينس الحب الأول الذى كان له أثر بالغ فى حياته . كانت الآنسة « س » بنت أخت أستاذ يعطيه دروساً فى اللغة الفرنسية ، فشغل بها عنها ،

وصارت هى أستاذة له . . إذ وجهت حياته وفهمه للأشياء وقيمه الاجتماعية توجيهاً مختلفاً عما كان عليه طالب أزهرى ابن أحد علماء الأزهر ، نشأ فى بيئة تقليدية ، وتكونت عاداته ومعاييره على مقتضاها ، يرى نفسه فجأة بين أسرة على أحدث الأوضاع العصرية تسكن ضاحية المعادى استصحبه إليها خالها مدرس اللغة الفرنسية وكانت المعادى ذات مستوى اجتماعى غير ما هى عليه الآن .

قال لى : لقد مدنت «س» عاطفتى ، وغيرت أسلوبى فى الحياة ، نزعت من نفسى أشياء كثيرة ، ووضعت مكانها أشياء أخرى . كنت أعرف أن الرجل إذا خلا بالمرأة كان ثالثهما الشيطان .. ولكنى خلوت بها مراراً ، بل عشت معها كثيراً فكنت أرى : إما لوحة رائعة نتأملها ونتذوق ما فيها من فن وجمال ، وإما قطعة موسيقية نسمعها ونعيش فى جوها الساحر ، أو حديثا عذباً أسمع فيه تغريدها ، أو نظرة يطل علىّ منها عالم جديد .. ولكنى لم أر الشيطان . . أول شعر قلته معبراً عن حقيقة مشاعرى هو ماقلت فيها ، ومنه :

المعادى أو نفحة من هواها	تودع النفس فى شذاها الشجونا
المعادى فقد تركت فؤادى	فى رباها شرداً مجنوناً

لم يتزوجها لأنه لايريد أن يتزوج ، فقد كان يعتقد أن وجوده فى الحياة مشكلة لم يصل إلى حل لها ولا يطمع أن يصل ، وقد ردد هذا المعنى فى أشعاره ، وهو لذلك لايريد أن ينجب مشاكل أخرى .

لم يكن أمام كامل الشناوى – الأديب الشاعر – إلا العمل فى الصحافة وإلا عاش متسكعاً قد لايجد قوته ، فقد كان والده مسرفاً لايبقى على شىء من مرتبه الكبير ، أيام كان للمرتب الحكومى الشأن الأكبر فى حياة الموظفين ، لم يكن أمامه إلا العمل الصحفى وإلا عاش مثل عبد الحميد الديب الشاعر الشحاذ ، الأديب عندنا لابد أن يعمل شيئاً آخر غير الأدب لكى يعيش .

فى أواخر الثلاثينات كلمت صديقى الأديب الكاتب الكبير محمد الهيهاوى فى أن يتوسط لى عند صديقه أنطون الجميل رئيس تحرير الأهرام ، لكى أعمل محررا بالاهرام فقال لى ، وهو آسف :

– منذ أسبوع واحد كان فى الأهرام مكان خال ألحقت به كامل الشناوى ، وليتك كلمتنى قبل ذلك .

وهأنذا سنة ١٩٥١ كما قلت لك فى أول الكلام أتصل بكامل الشناوى رئيس قسم الأخبار بجريدة الأهرام لأعمل محررا فى الجريدة ، وقد رحب بى وأحسن استقبالى وأفسح لى فى الجريدة العتيدة العريقة ، وكان قد حدثه فى هذا الشأن قبل أن أذهب إليه الصديق عبد الله حبيب ، وبهذه المناسبة أقول إنه لم يعرض (بالبناء للمجهول) علىّ عمل ، كما يقول كثير من الناس إنهم معروض عليهم كذا .. بل كنت دائماً أسعى لما أريد وكثيراً ما أخفق السعى .

خفضت الكتابة فى مجلة الرسالة ، فجعلتها كل أسبوعين بدلا من كل أسبوع حتى أستطيع الجمع بينها وبين العمل فى الأهرام .. وكان فى مراجعة الأخبار وتنقيحها وصياغتها ووضع العناوين لها ، ولم يكن فى الجريدة إذ ذاك مجال لكتابة مقالات أدبية أو ما يشبهها ، إذ كانت أزمة الورق مستحكمة وكانت تصدر فى أربع صفحات .

وفى الوقت نفسه عين الزيات رئيس تحرير لمجلة الأزهر ، وأخذت « الرسالة » فى الانحدار ثم كففت عن الكتابة فيها كما كف من قبل زميلى أنور المعداوى . ثم لقيت مصرعها لأنها كانت تحرر من « صندوق البريد » .

* * *

رأيت فى مكتب كامل الشناوى بالأهرام ندوة عجيبة فيها من كل صنف .. أدباء وصحفيين ووزراء سابقين ، كأن هؤلاء أحيلوا من الوزارة إلى مكتب كامل

الشناوى ، فمكثوا هناك ريثما تتاح لهم فرصة الوزارة مرة أخرى . أذكر من هؤلاء حفنى محمود باشا شقيق محمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين وقد توطدت صلة الصداقة بين حفنى محمود وكامل الشناوى خاصة لأنهما يتفقان فى «مزاج» واحد اشتهرا به ، وهو صنع المقالب .

كان يدور فى هذه الندوة نقاش كثير مختلف فى كل شيء من أدب وفن وسياسة . . إلخ وكانت الأخبار السياسية تأتى برجليها فينشر منها ما يمكن نشره ، ولهذا كان كامل الشناوى ركناً مهماً فى الجريدة فى ذلك الوقت ، إذ كان أهم ما ينشر هو الأخبار وكانت البلاد «حبلى» تحمل جنين الثورة . . وقد احترقت القاهرة ونالنى من هذا الاحتراق بعض المتاعب إذ كان «التجول» ممنوعاً مساء ، بحيث لا أستطيع العودة إلى المنزل ليلا ، ولهذا أمر كامل الشناوى أن توصلنى سيارة من سيارات الأهرام التى تحمل ترخيص الصحافة للمرور وكان يحدث أن يقف جنود الجيش فى سبيل السيارة ويوقفوها حتى يطلعوا على الترخيص وكانوا يصوبون إلينا البنادق ويرهبوننا بالأصوات الجهورية الآمرة : قف . . من أنت ؟

كنت أعمل إلى الساعة الثانية عشرة ولا أستطيع السهر أكثر من ذلك ، وهذا الوقت هو الذى تكون الندوة فيه فى «عزها» وتمتد ساعات بعد ذلك ، وحوالى الساعة الواحدة بعد نصف الليل تمد الموائد وعليها أطباق «الكباب والكفتة» يأتى بها «صبيان الحاتى» على حساب كامل الشناوى إلى جانب الطلبات الأخرى لجميع من فى الندوة من شاى وقهوة و«كازوزة» إذ كان كامل كريماً جداً إلى درجة الإسراف يضع يده فى جيبه ويعطى ما فى قبضته «بقشيشاً» لكل من يخدم من عمال «البوفيه» وصبيان المطعم .. وكانت كلمة «كامل بيه» تجرى على الألسنة فى حب واحترام كبيرين .. كان قد أخذ البكوية رسمياً من فاروق هو وبعض الصحفيين مثل صالح البهنساوى وعلى ومصطفى أمين .

ثم تحرك « الفيلق » إلى أخبار اليوم حيث كان صاحباها يزمعان إصدار جريدة الأخبار اليومية ، كان الفيلق بقيادة كامل الشناوى وكنت فى جملته وكان يضم أنيس منصور وكمال الملاخ وحمدى فؤاد وعلى حمدى الجمال وغيرهم من المحررين بالأهرام وقد تعرفت فى ندوة كامل الشناوى بأنيس منصور الذى كان من نجوم الندوة البارزين فى المناقشات الأدبية على صغر سنه . ورأيت فى «صالة التحرير» بالأخبار الفتاة الرائعة وكانت بقسم الترجمة مع على حمدى الجمال الذى علق بها وتزوجها .

انتقلنا إلى الأخبار المزمع إصدارها فى أوائل ١٩٥٢ قبيل ثورة ٢٣ يولية ومكثنا نحو شهرين نعمل فى الجريدة التى لاتظهر للجمهور ، إنما كانت تطبع وتوزع فى الداخل للمناقشة الداخلية . وأذكر أنى اقترحت على على أمين أن تتضمن الجريدة باباً للنقد الأدبى فقال لى «يعنى إيه نقد أدبى»

والسؤال استنكارى .. فقد كان الاهتمام كله موجهاً إلى الأخبار ، فاسم الجريدة «الأخبار» والأصل «أخبار اليوم» وعندما وضعوا الأبواب الأسبوعية فى ركن من الصفحة الأخيرة وضعوا قبل كل شىء كلمة «أخبار» مثل أخبار الأدب وأخبار الفن وأخبار الأطفال .. إلخ . .

وكان على أمين عندما يلقى أحداً من المحررين يمد يده ، لا لمصافحته ، بل يهزها طالباً أخباراً . .

ولما استكتبوا كبار الأدباء كان المقصود «الأسماء» فقط لا ما يكتبون ، كان الهدف أن تحشد فى الجريدة أسماء لامعة تجذب جماهير القراء . . وهذا الاجتذاب كان هو كل المقصود من كل ما ينشر واصطنع الأسلوب المثير والمبالغات المثيرة ، والنزول إلى اهتمامات القراء لا السطحية «ومازال آثار ذلك حتى الآن» . . .

اندمج كامل الشناوى فى هذا الجو الصحفى وإن كان يختلس بعض الوقت

والجهد أحيانا لإنشاء قصيدة ، وكان مركزه الصحفى يجعل المطربين والمطربات يتهافتون على غناء قصائده والمؤسف أن الشاعر يعرف عند جماهير الناس فى بلادنا بما يغنى له . . فعندما كتبت الصحافة أخيراً عن مأساة الشاعر محمود أبو الوفا كان أبرز شيء يعرفونه به أنه صاحب أغنية «عندما يأتى المساء» التى يغنيها عبد الوهاب .

وكان كامل الشناوى يأخذ مرتباً كبيراً جداً من الصحافة وينفقه كله على نفسه ، فلم يتزوج ولم يكن له أولاد طبعاً ، كان كريما سخياً كما ذكرت وكان أكولا جداً برغم مرض السكر الذى لازمه حتى مات . . كان يأخذ «حقنة البنسلين» ويأكل ما يشاء فكنت أرى من يعطيه الحقنة إلى جوار من يحضر المائدة . . كان عندما يشعر بآلام المرض يتجه فوراً إلى «مستشفى الكاتب» ويقيم هناك ترعاه الممرضات . . ويأخذ الحقن ويأكل . .

وقد اعتكف فى أواخر حياته وتخفف من العمل الصحفى ، ووجه اهتمامه أكثر إلى الأدب ، والشعر ، وأخرج كتاباً أو ديواناً لا أذكر اسمه ، وكان أصدقاؤه من الصحفيين والأدباء يزورونه فى منزله بحى «جاردن سيتى» فتكون هناك شبه ندوات ، والواقع أنه كان يحسن العلاقات والصداقات وخاصة مع المشهورين من كل الفئات صحفية كانت أو سياسية أو أدبية . . إلخ .

* * *

كامل الشناوى كاتب مرح يضمن النكت أكثر كتابته كما يرسلها فى مجالسه ، ولكنه شاعر حزين . . وأعتقد أن الشعر هو التعبير الصادق عن حقيقته وحقيقة نفسه ، فهو فى أعماقه حزين عندما يتهيأ للشعر يغفو شعوره الظاهر الضاحك فيتصل بشعوره الباطن الحزين ، وهو فى ذلك مثل حافظ إبراهيم الذى كانت كل مجالسه ظرفاً ودعابة ، وكان نصف شعره رثاء . .

ومن مظاهر الحزن فى شعر كامل الشناوى ما يردده كثيراً من التساؤل عن حياته

ومعنى وجوده وإلى أين تمضى به الأيام ، هذا هو يحتفل بعيد ميلاده مرحاً مع الأهل والأصدقاء ثم يخلو إلى عقله الباطن الذى يوحى إليه أن يقول :

عدت يايوم مولدى — عـدت يـاأيها الشقى
الصبا ضاع من يدى — وغـزا الشيب مفـرقى
لـيت يايوم مـولـدى — كنت يوماً بلا غد
ليت أنى من الأزل — لم أعش هذه الحياة
عشت فيها ولم أزل — جـاهلا أنها حـيـاة
ليت أنى من الأزل — كنت طيفاً ولم أزل
أنا عمر بلا شباب — وحـيـاة بلا ربـيـع
أشترى الحب بالعذاب — أنا وهم أنا سراب

إنه يضحك ملء جسمه الضخم ويضفى على من معه مرحاً وظرفاً ، يريد أن يغطى حقيقة نفسه الحزينة ، ولكن المجلس ينفض والضحك يذهب فى الهواء ، ويعود الحزن والشعر والعذاب ..

أنور المعـداوى

ناقشنى بعض الأصدقاء فيما كتبت عن واحد فى هذه السلسلة : « هؤلاء عرفتهم » قال : إنك لم تكتب عنه كذا ولم تتناوله من ناحية كذا .

أجبت بما أحب أن يكون مفهوماً ملحوظاً :

لا أقصد بهذه الفصول دراسة كاملة لهؤلاء الذين سعدت بمعرفة أشخاصهم ، وقد يكون بها بعض الملامح الدراسية من بعض النواحى . ولكن القصد إنما هو إلى تصوير احتكاكى بهم وانعكاسهم على نفسى . ولعلك تلحظ أن هذا المنحى قريب إلى ماكنا فيه قبل من ذكريات . وهو كذلك .

ومن أقرب الناس إلى نفسى ، وممن لاتنسى عشرتهم ، أنور المعداوى . وفى وقت ماكان اسمانا يذكران مقرونين بالرسالة التى نشأنا فى أحضانها ، ورضعنا ثدييها . ولك أن تقول إننا أخوان فى الرضاعة .

أنور المعداوى ناقد لم يكمل . . لم يتم تمامه . . بدا مهاجماً عنيفاً ، ثم وقف فى مكانه ، ثم مات . . مات وهو لايزال شاباً . ليس الموت هو الذى قطع سلسلة حياته الأدبية ، بل قطعت هذه السلسلة من قبل ، وكان انقطاعها من أسباب الأزمة الصحية التى انتهت بالموت .

كانت أزمته الأدبية لأنه لم يستطع أو لم يمكن (بالبناء للمجهول) من أن يستمر عنيفا مهاجما . لم يصبر على المعاناة . كان يريد أن يبدأ ويستمر كاتباً كبيراً ، ولكن الحياة تمسكت بناموسها الذى لايتخلف : لابد للإنسان أن يبدأ صغيراً ، ثم يكبر بكفاحه شيئاً فشيئاً ، ولا بد من عقبات فى الطريق ، ولابد من جهود لتذليل العقبات ، وبذل هذه الجهود يمرن ويقوى الساعد . ولن يتلفت أحد من الركب الذى يحث السير إلى من تخلف عن الركب .

بدأ أنور يكتب فى مجلة « العالم العربى » منتمياً إلى « الأمناء » منسوباً إلى هذه الجماعة المنسوبة إلى رائدها « أمين الخولى » الأستاذ الكبير الذى يصنع العقول بكلية الآداب – قسم اللغة العربية – بجامعة القاهرة . كانت علامة ذلك الانتماء أن يكتب المنتمى تحت اسمه « من الأمناء » كما كانت تكتب الدكتورة بنت الشاطىء الزوجة الصغيرة للأستاذ الكبير ، وكذلك كان يفعل أنور المعداوى أولا ، ثم لما انتقل إلى مجلة « الرسالة » قلعة الخصم الأول للأمناء – أحمد حسن الزيات – انتهى أمر ذلك التوقيع ، وإن بقى الانتماء كامناً فى النفس . على أن أنور المعداوى كان من النبات الذى يقف على ساقه ولا يحتاج إلى ما يتسلق عليه ، بل هو أرهق ساقيه بتحميلها أكثر مما تحتملان .

وهو واقف ذلك الوقوف دار حول نفسه يقول : هأنذا أهاجم الزيات فى « العالم العربى » ولعله كان إذ ذاك صادراً عن موقف الأمناء . . وازن بينه فى رثاء ولده رجاء وبين محمود تيمور فى رثاء ابنه بكتابه « أبو الهول يطير » ورجح كفة

تيمور ووصف أدب الزيات بأنه مصنوع وأدب تيمور بأنه مطبوع . وكان ذلك فى الفترة التى بدأنا فيها الصداقة والزمالة فى وزارة المعارف (إدارة السجل الثقافى) وبشىء من التدبير واصطناع الروح الرياضية رددت عليه فى الرسالة بموازنة معاكسة ، أى بترجيح كفة الزيات ورد السهم إلى راميه . . ورد على ، ورددت عليه ، ومما قلته إن صاحبنا «أمينى» مشحون .

ولم يجد الزيات مانعاً أن يكسب هذا «الأمينى» فاستجاب لما عرضته عليه من ضم أنور المعداوى إلى الرسالة ، وسرّ بنا الزيات كجوادين يجران عربة المجلة وأعطانا مالم يعطه لغيرنا من الكاتبين بالمجان . وبعد مدة قال لى أنور :

– ألا ترى أن الثمانية الجنيهات التي يعطيها الزيات لكل منا فى الشهر قليلة ؟

– بلى ، يا أبا الأناور . . بركاتك !

ونقل «محمد عبد الرحمن» السكرتير الإدارى للمجلة تلك الرغبة أو مطالبتنا بالزيادة إلى صاحب المجلة ، فأمر أن يزاد المبلغ إلى عشرة . . ومن أسباب ارتياحى لانضمام أنور إلى الرسالة أن يكون قوة معى ضد رأس المال ! والواقع أننا بعثنا فى المجلة – ولافخر – روحاً جديدة بعد أن انصرف عنها كثير من الأقلام الكبيرة .

وأخذ أنور المعداوى يصول فى الرسالة ويجول على هدى وعلى غير هدى ولم يكن يطيق أن يتعرض له أحد بكلمة ، والويل لمن يفعل . . وعلى العكس من يثنى عليه . وكان يتلقى كثيراً من رسائل الراغبين فى ترديد أسمائهم والإشادة بإنتاجهم ، يثنون عليه فيها ويدفعون «عربون» الثناء المنتظر من قبله . .

والملاحظ على وجه عام أنه كان يدور حول نفسه ، يريد أن يثبتها بأية طريقة ، يتحدث أحياناً عن صداقته المبتدئة لتوفيق الحكيم ولعلى محمود طه ، ويهاجم أحياناً توفيق الحكيم واصفاً أدبه بأنه «أدب الجدران المغلقة» متهماً إياه – بغير حق – بأنه بعيد عن حياة الناس ، وكانت هذه التهمة امتداداً لما ردده بعضهم من أن توفيق

الحكيم يكتب من البرج العاجى ، وعى عبارة كان يقصد بها ما يوصف بأنه « الفن للفن » ولم يكن كذلك صاحب « يوميات نائب فى الأرياف » وكل ما فى الأمر أنه كان يكتب فى الرسالة بعنوان « من البرج العاجى » فأخذوا من هذا العنوان تلك التهمة . كما أخذوا من كتابته عما يليق بالمرأة أن تفعله ، وفى مقدمته إجادة صنع « صينية البطاطس » إنه عدو للمرأة ! وهو لايعنى بدفع ما يلصق به .

أما على محمود طه فقد أخذ نصيب الأسد من كتابة المعداوى ، رفعه فوق الشعراء جميعاً ، وطبق على شعره ما أسماه « الأداء النفسى » وألف عنه كتاباً جمع فيه مقالاته عنه فى الرسالة مع زيادات أخرى ، وشعر على محمود طه فى ذاته جدير بالإشادة ، ولكن الوقفة عند « الأداء النفسى » الذى نادى به أنور المعداوى مذهباً جديداً فى النقد والشعر والأدب على وجه عام قلت له مرة :

– كيف يكون الأدب من غير أداء نفسى ؟

وذلك بدءاً من حقيقة أساسية ، هى أن الأدب فى الحقيقة ما هو إلا تعبير عما فى نفس الإنسان ، فهو أداء لما فيها ، وماليس كذلك لايعد أدباً .

فقال :

– كثير ليس فيه الأداء النفسى

– مثـل ؟

– مثل الشعر العربى كله فى جميع عصوره !

وقد كتب ذلك عدة مرات ، قلت له :

– هل تفسح صدرك لأن أكتب سلسلة طويلة ، آتى فيها بكثير جداً من أشعار العرب كلها أداء نفسى ؟

– « خلنا أصدقاء أحسن ! »

والواقع أنى كنت أحرص على صداقته برغم اختلافنا فى كثير من الآراء والمزاج والاتجاه .

كانت كتابته كلها نقدية ، ما عدا قصة قصيرة واحدة نشرها فى الرسالة ، وكدأبه أثار حولها عاصفة من شد الانتباه ، قال إنه – يلبى أو يطبق ما قال به توفيق الحكيم من أن الشبان يكتبون القصص كالحواديت ليس فيها تعبير أدبى ، وإنه – أى توفيق الحكيم – يود أن يرى شاباً يعالج القصة علاجاً أدبياً ويثريها بالتعبير الأدبى . ولكى يجذب أكبر قدر من اهتمام الشعراء بالقصة ختمها بخاتمة تقف فيها بطلة القصة حائرة . . . وطلب من القراء – فى شكل استفتاء عام – أن يفتوها ماذا تفعل . . . ثم نشر فى بابه الأسبوعى « تعقيبات » كثيراً من الردود ، وخاصة ما يتضمن مدحاً للقصة .

وكان بعض القراء ممن لايعجبهم « الخال المايل » يكتب فى « بريد الرسالة » نقداً له ، وبعض الأدباء يردون عليه فى نقد وجهه إليهم ، فكان يصلى هؤلاء ناراً حامية ، ويشن على الأدباء الذين يناقشونه حرباً لا هوادة فيها . ومن هؤلاء عبد الرحمن بدوى وزكى نجيب محمود .

لا أذكر سبب المعركة الحامية التى دارت رحاها بينه وبين الدكتور زكى نجيب محمود ، ولكنى أذكر أن سلاح دكتورنا الفيلسوف كان علمياً تحليلياً ، إذ ألقى بعض الضوء على شخصية المعداوى ، تصوره شاباً مغروراً متهوراً ، وأذكر أنه قال فيما قال إن من غرور هذا الشاب أن سمى كتابه « نماذج من الأدب والنقد » كأنه يريد أن يملى على الناس نماذج يصنعها هو لكى يحتذوها . . . وهو لايزال ناشئاً لم يقدم شيئاً بعد . وكان هذا الكتاب قد أصدره جامعاً فيه مقالاته فى الرسالة .

لم أكتب عن كتابه ، فعاتبنى فى ذلك ، فقلت له إنى رأيت الكثيرين يجاملونه ويكتبون عنه فاكتفيت بذلك ، وكم تعبت من سكوتى عن كتب لم أرد أن

أغضب مؤلفيها . .

والواقع أن موقفى ذاك لم يكن سليماً ، وإن أردت به أن أتجنب إغضاب الصديق ، فقد كنا اتفقنا على تصنيف الكتابة عن الكتب التى ترد إلينا صنفين ، أحدهما نقد كامل ، والآخر كلمة تحية . وأنا لم أفعل هذا ولا ذاك !

قد يكون ذلك لأنى لم أرد أن أشارك فى «مهزلة المجاملات »

الأثر الباقى فى نفسى من أنور المعداوى هو ذكر الصديق الذى لاينسى ، وتقترن ذكراه بذكرى شاعرنا الفذ على محمود طه الذى عرفنى به ، وقضينا معه ومع أستاذنا الزيات أطيب الأوقات ، تارة فى شقة الشاعر ، وتارة فى مكتب الزيات ، وأحياناً يدعونا الزيات إلى غداء أو عشاء فى «كازينو الجمل » بشارع الهرم . . شارع الهرم قبل أن يغشاه كل من هب ووفد !

كان أنور رضى النفس رقيق الطبع ، برغم علو صوته فى المجالس كما هو فيما يكتب . . وقد ظللت إلى آخر حياته أذهب إليه أولا فى ميدان الجيزة حيث كانت «قهوة الكمال » التى اعتاد أن يجلس بها فى شبه ندوة أدبية ، من شخصياتها زكريا الحجاوى ومحمود حسن إسماعيل ونعمان عاشور وعبد القادر القط وكمال منصور الذى ترعرع فى عالم القلم ثم اختفى لا يظهر إلا فى بعض الأغنيات التى ألفها لبعض المطربين والمطربات ، وكان صديقاً عزيزاً لى ولأنور المعداوى .

سافرت إلى السودان عائداً إلى التدريس ، وانقطعت صلتى بأنور سنوات وقعت له فيها أزمات صحية ونفسية من جراء نقله إلى التدريس ومن شىء آخر سيأتى ذكره .

والواقع أن التدريس الذى عدت أنا إليه غير التدريس الذى نقل هو إليه . . كنت فى السودان أعمل فى مدرسة ثانوية متحرزاً ومتخففاً من الأشياء التى «تقرف» المدرس . . . كان الطلاب فى الفصل الدراسى قليل عديدهم ،

وعدد الحصص فى الجدول معقول ، ولم يكن هناك مفتش من «إياهم» الذين أسمتهم وزارة التربية أخيرا «موجهين» وكنت حراً ، إذا مرضت أبلغت أنى مريض فقط ، أى بدون إحالة إلى طبيب ، ولهذا لم يكن المرض يطول . . للشعور بالمسئولية ومبادلة الثقة بالثقة . وكنت أضع المقرر فأختار المواد الدراسية التى أراها نافعة للأولاد ، وأضع أسئلة الامتحان ، وأصحح أوراق الإجابة وعليها أسماء الطلاب الذين أعرفهم وأعرف مقدرة كل منهم ومقدار اجتهاده ومستوى تفكيره . . . إلخ ، وباختصار كنت كأستاذ فى جامعة أو مثال غير واقع فى حياتنا لأستاذ الجامعة ! وكنت أتقاضى مرتباً كبيراً يعوض ما فقدته بالفرار من الصحافة التى أرادت أن تنقل قلمى من الأدب إلى الإثارة .

أما التدريس الذى نقل إليه صديقى أنور المعداوى فهو على عكس كل ما ذكرته . . . وهو بطبعه لا يميل إلى هذا العمل ، وقد أخذ إليه كرهاً ، واضطر إلى قطعه وقطع عيشه وناله من جراء ذلك شرٌّ وبيل وارتفاع ضغط الدم المزمن .

والشىء الآخر الذى جر عليه تلك الأزمة هو «شارع الأدب» المسدود فى وجهه ، لقد ظن أنه استوى على عرش الأدب ، فإذا الأمر فى الواقع لايزيد على وهم . . وقد وهم هذا الوهم الكاتب السورى على الطنطاوى . . كان يكتب فى الرسالة مرسلا مقالاته من دمشق ، ثم رأى أن يسافر إلى القاهرة وهو يظن أن الشعب المصرى أصبح يعرفه لكتابته فى المجلة التى تقرأها سوريا على نطاق واسع وتعرف كتابها ، توهم الرجل أن الأمر فى مصر التى تصدر المجلة لابد أن يكون أكثر مما هو فى سوريا ، ووقع فى مشكلة بمطار القاهرة ، فقال للمسئولين هناك . أنا على الطنطاوى ! فلم يبد عليهم أنهم يقرءون الرسالة . .

إن الحرية التى اعتادها أنور فى الرسالة لم يعد لها مجال . . . أو قل : اللون الذى اعتاد أن يكتبه فى الرسالة لايقبله غير الرسالة . . وهو رجل «ناشف» يأبى

على المران . ليس أمامه إذن إلا الجلوس فى قهوة الكمال بميدان الجيزة فإذا تكاملت الندوة من بعض الأدباء المعروفين وبعض الشباب الشادين تصدرها وراح يلقى عليهم دروساً فى نقد المجتمع الأدبى وما يسوده من تفاهات ومن يتصدره من أدعياء وكثير مما يقول حق لاشك فيه ، ولكن ما الحيلة ؟ لاشىء إلا مقدمات للتمزق والصراع بين واقع سيئ ومثالى مأمول ، أو هو فى الحقيقة غير مأمول !

وكان فى قهوة الكمال شخصية عجيبة ممن يعيشون على هامش الحياة . . رجل اسمه «عبادة» جاء من الصعيد إلى القاهرة ، ولم يعجبه الحال فيها ، ولم يعد إلى قريته ومكث فى الجيزة يساعد فى بعض أعمال القهوة مقابل «الطلبات» يقف بصدره العارى الذى حسرت عنه أسمال على جسده ، مشرفاً على ميدان الجيزة ، صارخاً بصوت محتج

«إيه ياعالم ! إيه يا أمم !» وكان أنور يستضحك به ويستريح إلى كلماته الرافضة الناقدة للمجتمع . .

والدنيا تتغير ، ويعدو التغير على قهوة الكمال ، فيعمل فيها الهدم لكى تحل محلها العمارة القائمة الآن وفى أسفلها محل تجارى كبير ، وكأنه لم يكن هناك قهوة ، ولم يكن هناك أدباء ، ولم يكن «عبادة !»

ولكن الشمل يجتمع فى قهوة أخرى بحى الدقى ، ويتكاثر الوافدون الأحلاس ، ومنهم من يقحم نفسه بين الأدباء وليس من الأدباء . ثم ينتقل أنور إلى قهوة أخرى قريبة من الأولى فى نفس الحى ، فينتقل الجمع وراءه . . فى أثناء ذلك أو فى أوائل ذلك اتصل حبل المعداوى بمجلة الآداب الشهرية فى بيروت ، إذ صار كاتباً فيها ويعتمد إليها فى القاهرة . وكانت له صلة قديمة بصاحبها نشأت حينما كان هذا يجىء إلى القاهرة ، وكان يجىء هذا إلى مصر فى الآونة الأخيرة – إذ ذاك – مقتربا باتصالات محصولها يدخل إلى جيبه للدعاية السياسية على الطريقة

البيروتية ، وكان هذا يفرض على أجهزة الإعلام فى مصر للإشادة بأدبه ومناقشة كتبه فى « البرنامج الثانى » للإذاعة ، ووعى أنور مرة إلى إحدى هذه المناقشات فرفض ، وأعلن فى مجلسه بالقهوة رأيه الصريح فى مؤلفات صاحب الآداب . . وانقطعت الأسباب بين المعداوى وبين مجلة الآداب .

* * *

ثم أعيد أنور المعداوى إلى الوظيفة الحكومية ، وعين له العمل بمجلة « المجلة » حينما كان يرأس تحريرها الأستاذ يحيى حقى . وكتب أنور فى المجلة بضع مقالات نقدية ، ثم انقطع . . ربما اختلف مع يحيى حقى الذى كان يدقق فى كل صغيرة وكبيرة قبل النشر . جربت أنا مع الأستاذ يحيى ، كان يطلب بعض التعديلات ، وكنت مرناً معه ، وما أظن أنور كان كذلك .

لزم مكانه فى قهوة الدقى . وفى فترة مرضه سافر إلى بلده « معدية مهدى » ولما شفى عاد إلى القاهرة وطلبت إليه أن يكتب لمجلة الرسالة الصادرة عن وزارة الثقافة فى الفترة التى عهد إلى فيها أن ألى أمرها فقال لى إنه ممنوع من الكتابة بأمر الطبيب . وضمن رده فى مرارة أنه « خلاص .. لن يكتب ! » .

ووقعت بعد ذلك أحداث فى محيط المجلات الأدبية التى كانت تصدرها وزارة الثقافة فى أوائل الستينات ، وجدتنى من جراء ذلك خارج إطار العمل ، ثم ألغيت المجلات ، وسدت فى وجهى المسالك ، إذ وقف دونى حراسها من أتباع « مراكز القوى » ولم أكن من « المنتفعين » .

لجأت إلى قهوة الدقى إلى جانب صديقى أنور المعداوى الذى قال لى « ألم أقل لك ! » وكان قد قال لى : إنه لافائدة ، كل شىء ممل ، حتى « كنت » ممل . . وأشار إلى سيجارة فى يده من صنف « كنت » .

لم يكن يربط أنور المعداوى إذ ذاك بالحياة الأدبية أو بالإنتاج الأدبى إلا اكتئابه

« على محموط طه – الشاعر والإنسان » الذى أعده للنشر منذ سنوات ، ولم يتيسر نشره فى مصر . قال المسئولون عن النشر فى وزارة الثقافة : إن الكتاب لايتضمن تاريخ حياة على محمود طه ، ويجب أن يتضمن ذلك . أخذه منهم ، وقال لى : هؤلاء لايفهمون الطريقة الحديثة فى تحليل الأعلام . ثم أخذه صديقنا محيى الدين المستشار الثقافى للعراق فى مصر ، وأرسله إلى وزارة الثقافة العراقية فنشرته ، كما أخذ منى كتاب « الواقعية فى الأدب » ونشرته العراق . كان ذلك منفذاً للنشر لم يكن غيره حينما كنا منبوذين . . وجاءتنا « نسخ » من العراق مطبوعة على ورق جيد بعد العهد به فى مصر . .

شعرنا بالضياع فى مصر ، ويظهر أن « مصر » نفسها كانت تشعر بالضياع ، فقد سلبت حتى اسمها . . ووقف أنور المعداوى فى وجه الزوابع ، فعصفت به ، وطأطأت أنا لكى تمر ، ثم أستأنف الوقوف . إنا نختلف فى الطبع والمسئولية الاجتماعية ، أما الطبع فأمره ظاهر ، وبى مرونة محدودة غير ممدوة يعقبها غيظ الحليم ، وقد تعقبها حماقة . . وأما المسئولية فهى نحو « أفراخ » لم يكتمل ريشها بعد ، ولم يفرخ مثلها صاحبى ، فهو لم يتزوج ، وظل مفرداً صامداً حتى وقع . . .

عرفت من دخائل أنور فى ذلك الوقت أنه كان على علاقة بشعراوى جمعة . . علاقة شخصية ، قال لى إنه كان معه طالباً بالمدرسة الثانوية ، وأظنها مدرسة المنصورة . كانت العلاقة من بعيد مقتصرة على المكاتبات . ولا أذكر أكان شعراوى جمعة وزيراً إذ ذاك أم كان لايزال محافظاً للسويس ، والأرجح أنه لم يكن وزيراً بعد ، وإلا انشغل عن صديقه القديم كما ينشغل أى وزير !

والمحقق أن أنور المعداوى لم تكن له ميول سياسية بمعنى الانتماء إلى تجمع معين ، وأولئك الناس إنما ينظرون إلى الناس باعتبار واحد من أمرين لاثالث لهما : إما أن يكونوا معهم أو لايكونوا . . وأنور المعداوى عصى على الانتماء ، لتنتمى

أنت إليه وتعتنق مذهب «الأداء النفسى» أو أنت – ولا مؤاخذة لا تفهم .

* * *

فى ليلة من ليالى شهر ديسمبر سنة ١٩٦٥ – على ما أذكر – كنا فى قهوة الدقى ، وقد روّح الجلاس ، ولم يبق إلا أنور وأنا ، وكلما هممت بالانصراف يستبقينى ، وأنا أبقى ، فلم أره صافياً رائعاً كما كان فى تلك الليلة ، كان ينطق كأنه حكيم ، وكان ينظر إلى بودٍّ كأنى حبيب . . وقال لى فيما قال :

– إلى أين ؟

– إلى المنزل .

– أنت كل ليلة تعود إلى المنزل فى موعد معين لاتخلفه ، فى الساعة العاشرة على ما أظن ، ألم تمل من هذه الرتابة ؟

– ماذا تقصد ؟

– أقصد أن تخلف عادتك هذه الليلة وتقعد معى .

– أقعد معك ؟ وإلى متى ؟

– حتى . . «تشطب» القهوة .

وجذبتنى جاذبيته ، فمكثت معه تلك الليلة إلى وقت متأخر ، ثم انصرفنا وهو يسعل سعالا فيه حشرجة . . أحسست أنى أودعه الوداع الأخير . وفى اليوم التالى تلقيت نعيه وكأنه أمر معروف لا مفاجأة فيه .

كان يرجو من الحياة خيراً مما لقيه ، شعر بصدمة الطفل المدلل عندما يخرج من جو التدليل الأسرى إلى قسوة المجتمع . كان يظن أن ما بلغه من الشأن فى عالم القلم كفيل بأن تفتح له الأبواب ، فإذا هى موصدة ، موصدة أمامه ومفتوحة أمام من لايريد أن يكون مثله . .

محمد سعيد العريان

هذا شاب أنيق حسن الهندام ، وفى الوقت نفسه محتشم خجول يبدو أنه محافظ ، وكذلك أسلوبه : لغته التى يكتب بها طلية عربية فصيحة سليمة ، وخطه جميل ، واضح ، يجمع عامل المطبعة مقالته فلا يكاد يخطئ فيها ، ثم تجيئنى تجربة (بروفة) نظيفة لا أتعب فيها ولا يحتاج الأمر إلى تغيير فيها ، كما أصنع فى غيرها من كتابة ، تقوّم لغتهم وتصحح تعبيرهم ، كى يظهر فن « الرسالة » على المستوى العربى السليم اللائق بالرسالة .

ثم هو يحرص على أن يجىء ويراجع التجربة بنفسه ، وأعرف أنه مدرس خريج دار العلوم وأنا طالب بدار العلوم أكافح للحصول على لقمة العيش بعملى مصححا للمجلة .

وتنشأ بيننا علاقة مودة كعلاقة الأخ الأكبر بأخيه الأصغر الذى هو أنا ، وفى

هذه العلاقة تواضع من الكبير واعتزاز من الصغير . ويحدثنى عن صديقه وأستاذه الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعى ، وأنا لا أكبر هذا الكاتب كما يكبره ويكبره كثير جداً من القراء . . . وأقول له مرة قولا صريحاً : إن كتابتك أحسن من كتابته . أقولها صادقة لا ملق فيها ، فيجفل هو من هذه القولة ، وتبدو عليه سيماء الإنكار لها ، كأنه لا يصدق أنى صادق . . لأنه متواضع ، أو قل إنه عابد فى محراب أستاذه . . .

ذلك هو محمد سعيد العريان . الذى يجرى قلمه مبتدئا على صفحات « الرسالة » بمقالات بعضها قصصى وينشر فى باب بالمجلة عنوانه « قصص » وهو إلى المقالات القصصية أقرب منها إلى فن القصة ، وذلك نوع من الأدب انتشر فى أدبنا الحديث ، وهو يتجلى أكثر ما يكون فى كتابة الأديب الفكه الخفيف الظل إبراهيم عبد القادر المازنى الذى يقول لزوجته فى الحوار « يا امرأة » ، أين طبق البيض بالعجوة ؟ . . . وبكل أسلوبه وروحه التى ينفخ فيها كتابته . . ولا شك أن الأديب العريان له شخصية متميزة فيما يكتب ولكن ماذا يكتب ؟

كان سعيد العريان ينتزع موضوعاته من بيته وحياته ، وهما محدودان فى أول الشوط ، أكثر ما يعنيه أن يتزوج الفتاة التى أحبها فى بيئة طنطاوية – فهو من طنطا وقد عاش فيها صدر حياته – محافظة ، التقاليد فيها مرعية ، بل مقدسة ، فالبنت بمجرد أن تخطب تحجب عن الخاطب ، والخاطب أديب لابد أن يثور على هذه العادة . . وهذا موضوع لمقالة بالرسالة . والبنت الصغرى لا تتزوج قبل الكبرى ، والحبيبة المخطوبة هى الصغرى ، فيكون هذا موضوع قصة تنشر فى باب « قصص » ولكن الموضوع ثائر فائر ، يأخذ سمت المباشرة عدوة الفن القصصى .

إن أديبنا يحاول أن يكتب فناً قصصياً ، ويطيعه قلم مطبوع قد تغذى بالتراث العربى ، وتثقف بالدراسة اللغوية ولكن الفن يستعصى عليه فيما يحاول من كتابة

قصص قصيرة . ويشكو - كما سمعته - من أن مجال حياته ضيق ، ليس له تجارب ومسارب فى الحياة مثل قصصى كبير كمحمود تيمور . وهذه المجموعة القصصية التى أصدرها بعنوان « من حولنا » تنبئنا أن من حوله لم يدخلوا عالم الفن القصصى على النحو المعاصر ، وقد يكون أقرب إلى عبرات المنفلوطى . والعنوان يحتمل أن تكون « من » فيه بكسر الميم ، والمجال ضيق محدود ، ولكن الموهبة والمران يستطيعان أن يعينا على اللقطة الفنية من أى كان ، أعنى من أى شىء حولنا مهما يكن.

أذكر أن يحيى حقى - وكان اعتزل الإنتاج والنشر مدة انشغالة فى الوظائف الدبلوماسية بالخارج - كتب فى أول عودته إلى الحياة الأدبية كلمة فى جريدة « المصرى » قال فيها إن العريان تنقصه « روح القلق » التى لابد منها لكل قاص . ورد عليه العريان محاولا أن ينتقص من « قنديل أم هاشم » القصة التى عرف بها يحيى حقى .

وأعتقد أن القلق الذى كان يعنيه يحيى حقى ليس هو ما يحدث للمرء وما يقلق باله من هموم شخصيته ، وإنما هو شىء يتعلق بالقضايا العامة والروح العام . أو هو شعور الإنسان بضرورة تحقيق مثل معينة متغيرة إلى الحسن . وهذا إن كنت استطعت التعبير عنه أن يكون فى كل أدب حى صادق .

وأعتقد كذلك أن ذلك القلق إن لم يكن قد تحقق لغير العريان فى محاولاته الأولى فقد تحقق فى رواياته التاريخية وخاصة فى رواية (على باب زويلة) وهى قمة إنتاجه الأدبى التى لم يكتب مثلها فيما تقدم ولا فيما تأخر . وكانت قبلها محاولات تاريخية أيضاً فى قصة « قسطنطين » و « وشجرة الدر » و « قطر الندى » .

وأعتقد كذلك أنه وجد نفسه فى هذه الروايات وأنه أغرق نفسه فيها وفى حوادثها وخيالاتها . وشغل بها عما ألم به من جراء حادث أليم عصف به وكاد يحطمه تحطيماً .

كان قد تزوج تلك الفتاة التى أحبها فى طنطا ، ولقى فى سبيل حبها ما لقى ، من جراء محافظة أهلها على التقاليد ، وتم عقد القران سنة ١٩٣٦ . وأعقب ذلك سنوات عسل أربع . . أنجب فيها الزوجان السعيدان اثنين ، ثم أسلمته الثالث ساعة ولادته ورحلت . . .

ولم أعلم بشىء من ذلك حتى لقيته مصادفة . وقال لى فيما بعد إنهم لم ينشروا النعى فى الصحف لأن لها أخاً فى الخارج خشوا أن يعلم نبأ الفاجعة ، لقيته بشبرا وأنا فى طريقى إلى مدرسة مكارم الأخلاق التى كنت أدرس بها عقب التخرج ، ورأيت ربطة العنق السوداء والهندام غير المنسق . وقتامة على الوجه . وأردت أن أضاحكه قبل أن أعلم ، فلم يضحك ولم يبتسم كعادته . وكان مدرساً بمدرسة البنات الابتدائية – على النظام القديم – بشبرا ، وكنت أنا كذلك بمدرسة بنات ابتدائية ، ولكن الفارق أن هذه « حرة » كالتى تسمى الآن (خاصة) وتلك (أميرية) أى حكومية .

قلت فى مضاحكتى له :

– نحن – الاثنين – مدرسان « حريمى » .

وردت (بالبناء للمجهول) إلى النكتة البائخة كما ترد الموجة الرعناء عن الشاطئ الصخرى . . .

على أثر ذلك ذهبت إلى السودان مدرساً هناك . ولففت مجلة الثقافة الواردة إلى الخرطوم وكنت أعلم أنه يكتب فيها باب « الصحافة والأدب فى أسبوع » ولكنى قرأت بدلا من متابعة الصحافة والأدب كلاماً يقول فيه إنه أصبح – إلى جانب فاجعته فى حبيبة العمر أباً وأماً لأطفال ثلاثة ، وطالما قضى الليالى جانباً بجانب فراش الطفل الذى خلفته الراحلة قطعة من اللحم يدل صراخه على أنه كائن حى . . يطوى كتابه ويسرع إليه يهدهده برفق ، وفى القلب وجيب ، وفى العينين

دموع ، وأغرانى سكون الليل بالنجوى فرحت أبث الطفل من وحدتى - وما به أن يسمع ولا أن يجيب ، واستجابت لى عيناى ! يالك يا بنى من الدنيا ويالى . . . !

هكذا كان يكتب فى الثقافة . ويعبر عن لوعته وحرقة قلبه ، فتسيل على صفحاتها دموع القراء ، ورئيس التحرير أحمد أمين لا يملك إلا أن ينشر وهو يقول إن العريان يعذب قراء المجلة !

ويتناول الأب الحائر صحفنا الصادرة ، فيقرأ العناوين الآتية :

« رعاية الطفل » ، « حماية الأمومة » ، « إنقاذ الطفولة المشردة » « المولود ، والوالدة » ، « بيت الطفل » ، « مستشفيات الأطفال » ، « الإصلاح الاجتماعى » ، « الشئون الاجتماعية » .

وكأن هذه العناوين قد اتفقت على أن تواجهه فى الليل ليصبح فى الصباح يبحث عن تلك المنشآت : أما واحدة فلا تقبل الرضع ، أما الثانية فليس فيها مكان لطفل دون الرابعة ، والثالثة تؤوى من تشاء ولكن ليس فيها مراضع ، والرابعة فيها مكاتب وأبهاء للمحاضرات العامة تزينها صور الأعضاء . . . وقالت الخامسة وهى أعظم المنشآت الحكومية : نحن على استعداد لقبول الطفل بالمجان على أن يتنازل الأب عن حق أبوته ، فإننا لا نؤوى إلا اللقطاء من مواليد صندوق القمامة . . .

وكانت تلك أول كتابة أدبية من نوعها فى الأدب العربى ، وليت أولاده الذين كبروا الآن وصار لهم شأن يجمعونها فى كتاب يمثل لونا نثرياً فى رثاء الزوجة ، وإلى جانب ديوان « أنات حائرة » لعزيز أباظة . وهو أول ديوان فى العربية يصدر فى رثاء زوجته ، وكذلك ديوان « من وحىٍ المرأة » لعبد الرحمن صدقى الذى كان يشارك من يلومون العريان على الاسترسال فى تلك الكتابة وتعذيب القراء بها . ثم تأتى التجربة نفسها ، إذ توفيت زوجته وصور فى هذا الديوان أحزانه عليها .

كان سعيد العريان من النوع الذى يبحث عن شخصية كبيرة يتعلق بها ، وقد استنفدت علاقته بالرافعى أغراضاً بعد وفاة الرافعى وكتابة مقالات عن حياته بعنوان « حياة الرافعى » نشرت بالرسالة ثم جمعت فى كتاب أعطانى نسخة منه من غير إهداء مكتوب فتأثرت فى نفسى : هل كان ذلك « جليطة » منه ، إذ كان استصغاراً لشأنى ؟ كنت طالبا فى دار العلوم ، وفى مرة من مرات شدتى وأزماتى المالية بعت تلك النسخة لطالب زميل بخمسة عشر قرشاً ، وكان ثمنها المسعر عشرين قرشا . قلت لنفسى : لقد قرأته فليس بى حاجة إلا إلى ثمنه ، وفى أعماق إرضاء لنفسى لعدم الإهداء المكتوب . . .

بى - والحمد لله نزعة إلى التسامح ، آخذ الصديق فى جملته . بمعنى أنى لا أقف طويلا عند هفوة أو ما أعده هفوة منه . لابد أن أقف طبعاً وأتأثر نعم ، ولكنى سرعان أو « بطآن » ما أقول : ما علهش ! أى ما عليه شىء .

وأتذرع إلى ذلك بتذكر فضائله وتغليبها على ما وقع منه .

والواقع أن علاقتى بسعيد العريان تعرضت لمد وجذر ، وأكثر ما كان الجذر عندما أصبح هو ذا سلطان فى مكتب الوزير . كتبت مرة فى الرسالة أنى فقدت وجه صديق - لم أذكر اسمه - أصبح صاحب منصب كبير . إن خلصت إليه من الزحام لم أجد وجهه . . . وجهه الذى اعتدت أن أراه بشوشاً تقول سماه : أهلا . إنى لا أرى إلا خداً مسعراً .

رثيت ذلك الوجه البشوش ، وعبرت عن ألمى من النوع الذى يبحث عن شخصية كبيرة يلوذ بها ، والعجيب أنه - وهو من تلاميذ الرافعى - جنح إلى قريعه وخصمه العنيد طه حسين فلاذ به وتقرب إليه . والحق أنه مع هذا لم يبخل عن الوفاء لأستاذه الأول وظل رأيه فيه كما كان ، وكان يقول إنه لم يكتب رأيه فى الرافعى بعد ، وإنما اقتصر على سرد حياته فى ذلك الكتاب ، وأنه سيكتبه يوما .

كان سعيد العريان يكتب فى صحف الوفد ، وطه حسين من أقطابه وخاصة جريدة « النداء » الأسبوعية التى أصدرها فؤاد سراج الدين مشابهة لأخبار اليوم. ثم ترك الأدب كله وركز نشاطه على الوظيفة يعلو بها فى مكاتب الوزراء ، يمتد علو شأنه إلى فروع أخرى ، حكومية وغير حكومية ، منها دار المعارف التى أغرقها بطبع الكتب المدرسية وكان له فيها شأن المنفِّع « بتشديد الفاء المكسورة » والمستنفع . . .

قبل ذلك وفى فترة من فترات « المد » فى علاقتنا اختارنى عضواً فنياً بإدارة السجل الثقافى التى عين مديراً لها ، وكان صاحب الفكرة فى إصدار هذا السجل للتعريف بالإنتاج الثقافى سنوياً فى مصر ، ولم يستمر هو فى هذا العمل ، إذ نقل منه إلى التدريس معاقباً على كتابة نشرت فى جريدة وفدية « النداء » كان الوفد فى المعارضة ، واعتبرت ماسة برئيس جمهورية لبنان . ولما جاء الوفد إلى الحكم ودخل طه حسين فى الوزارة بعد أن انضم إلى حزب الوفد قفز سعيد العريان إلى وظيفة ذات شأن فى مكتب الوزير لم يكن سعيد العريان مشتغلا بالسياسة الحزبية ، إنما كانت صلته بطه حسين شخصية .

وتطلعنا إلى « نفع » فى الوظيفة يجره علينا سعيد العريان ومن ورائه طه حسين . والواقع الذى يجب أن يتغير ، وأرجو أن يكون الآن قد تغير ، إن الإنسان عندنا لا يأخذ حقه إلا عن طريق الصلة بشخصية كبيرة ذات نفوذ ، وقد يأخذ أكثر من حقه ، وبدون هذه الصلة يضيع حقه .

ولكننا لم ننل شيئا ، وكان صديقنا عبد الله حبيب – وهو من أصدقاء سعيد – من أهم الراغبين فى أن ينال شيئا / درجة استثنائية أو وظيفة مثل « مراقب » أو « مراقب عام » ولست أدرى لماذا لم يحثه على ذلك سعيد العريان ، وأذكر أنى دعيت إلى اجتماع فى نادى الصحفيين كان الغرض منه الصلح بين سعيد العريان وعبد الله حبيب . وأقبلت على القوم وهم يتناقشون فى موضوع يبدو أن الرأى

اختلف فيه ، وما جلست حتى وجه إلى السؤال : هل من حق الصديق على صديقه أن يسدى إليه منفعة وهل - إذا فعل - يعد ذلك من قبيل الصداقة ذات الغرض ؟

قلت : نعم ، له ذلك الحق مادامت الصداقة قائمة من قبل ، فإن كانت حادثة من أجل الغرض فهى مغرضة .

استراح عبد الله حبيب إلى هذه الإجابة ، وصمت سعيد العريان مطمئنا وبدا أنه يقول بسكوته . . . إن الصداقة شيء والمنفعة شيء آخر مهما تكن الصداقة . والواقع أنه هو انتفع بصلاته انتفاعاً كبيراً ، وكأنه يرى فى أعماق نفسه أن ذلك يجب أن يكون مقصوراً عليه ؛ فهو لا يتعب من أجل هؤلاء . . .

واستشرى العداء بين سعيد العريان وعبد الله حبيب الذى نقل إلى التدريس بمدرسة إعدادية ، فكانت الطامة الكبرى التى انتهت بوفاته .

كان عبد الله حبيب يقول عن سعيد العريان إنه « ابن طبال » محاولا الإزراء به . . . ذلك أنه اطلع على ملفه بإدارة المستخدمين ؛ فرأى فيه ما فى شهادة الميلاد من أن صناعة الوالد « طبال » وذلك أن والد سعيد العريان كان صوفياً يشترك فى الذكر الذى يستعمل فيه الدف ، وكان هو يقوم بدق الطبل ، كان عبد الله حبيب طويل القامة صريحاً من أمثالنا الذين يقال للواحد منهم « طويل وأهبل » وكان العريان أميل إلى القصر والدهاء .

رحم الله سعيداً وحبيباً وغفر لهما .

* * *

انهمك سعيد العريان فى كل ما يجلب له المال وغاب عن ساحة الأدب ، وكف عن الإنتاج ، مما ظن أنه أتى بعمل أدبى ذى قيمة كبيرة بعد رواية « على باب زويلة » وكان حرياً لو استمر فى كتابة الرواية التاريخية أن يأتى فى هذا المجال بإنتاج

كثير خالد يعتبر خطوة مهمة فى تطوير القصص التاريخى بعد جورجى زيدان وفريد أبو حديد .

بلغ فى الوظائف مرتبة وكيل وزارة أيام كان هذا المنصب قليلا وشارك فى التأليف للأطفال لما رأى هذا التأليف مربحاً .

والواقع أنه – برغم إعراضه عن الإنتاج الأدبى الذى كان يرجى من مثله – قدم للحركة الأدبية والثقافية بوجه عام خدمات كثيرة ذات أثر كبير عن طريق الهيئات واللجان الرسمية وخاصة لجنة النثر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، إذ كان عضوا بها وكان لى شرف زمالته فيها . اقترح مقترحات ووضع مشروعات بعضها نفذ مثل « الكتاب الوصفى » تلك السلسلة التى كان يصدرها المجلس الأعلى للفنون والآداب ، ونشرت فيها كتب لمؤلفين مصريين قضوا فى بلاد أجنبية فترة من الزمن ثم عادوا منها بحصيلة وانطباع ضمنوهما تلك الكتب .

ومن مشروعاته التى لم تنفذ « الصراط العربى » الذى اقترح فيه على المجلس أن يوفد أدباء مصريين إلى بعض البلاد العربية وخاصة صراط البحر الأبيض المتوسط الذى تقع عليه بلاد شمال أفريقية ، لكى يدرسوها ويكتبوا عنها ويوطدوا الصلات بين أبناء العروبة . ووافق المجلس على المشروع ، ولكنه لم ينفذ .

كان سعيد العريان فى الفترة الطويلة التى انقطع فيها عن الإنتاج الأدبى متمثلا فى التأليف ، يمثل نوعاً من كبار الأساتذة الرواد الذين كرسوا جهودهم للخدمة الأدبية والثقافية فى ميادين متعددة غير التأليف وإن كانت لهم فيه سابقات . منهم لطفى السيد ومهدى علام .

* * *

مضت حقبة من الزمن كنت ألقى فيها سعيد العريان لماماً فأسلم عليه ويسلم علىّ ، مبدياً كل منا ترحيبه وربما شوقه . . . ولكن لم أكن أدرى تماماً : أهو

صديق أو هو غير صديق !

لقد أسدى إلىّ بعض الأيادى ، لا أجحد هذا ، ولكن هل كنت أنا مقراً لمسلكه العام ؟ أو بسؤال آخر : لوكنت مكانه أكنت أفعل ما فعل إن استطعت ؟ هل كنت أدير ظهرى للإنتاج الأدبى وأوغل فى الاستفادة من الوظائف الكبرى وما تجره من مكاسب ؟ لاشك أن لكل طبيعته ، ولكل قدرته ، وربما أحجمت عن شىء لا حيلة لى فيه ولا قدرة عليه ، وقد يخيل إلىّ أن « العنب » حامض ، وهو حلو . . .

أحياناً يكون ذنب بعض الناجحين أننا عرفناهم وهم يتعثرون فى الطريق وكثير غيرهم يبلغون ما يبلغون ونحن لا ندرى ماذا سلكوا ونحن كذلك نقدرهم ونستعظم أمرهم ، ثم يمضى بهم التاريخ لا يلوى على شىء . . وربما أضاف إليهم ما لم يفعلوا . .

ولو أننا نظرنا إلى تقدير الناس للأدب فى هذا البلد ، وقلنا إن إصلاح الحنفيات أو الأحذية أجدى علينا لما كتبنا شيئاً . . .

* * *

كتبت فى نقد سعيد العريان ونقد أدبه كثيراً وبعض النقد أغضبه ولا شك ، وإن لم يصرح لى ، وأعتقد أن ما كتبته فى تقدير أعماله الأدبية الجديرة بالتقدير مسح غيره . . .

والذى أنا على ثقة منه أنى حزنت لمرضه الشديد ، وذهبت لعيادته فى مستشفى المعلمين حيث كان يعالج ، وازداد حزنى لما عرفت أن الطبيب – يمنع من زيارته لشدة الحالة ، ثم فجعت بنبأ وفاته عقب ذلك .

وكل مؤلفاته ، عندى آنس بها ، أهداها إلىّ كل فى حين صدوره مكتوبا عليه عبارة إهداء ، ما عدا ذلك الكتاب « حياة الرافعى » الذى أعطانيه ولم يهده

إلىّ . . . قرأتها جميعا ، وكتبت عنها فى حينها .

وقد ضننت بأى منها على « يوسف الحطاب » وكيل الإذاعة لما سألنى أخيرا عنها بالتليفون ، ولابد أنه كان يريد إعداد شيء منها للإذاعة ، بعد النجاح الملحوظ فى عرض « على باب زويلة » . . . وليبحث يوسف الحطاب عما يريد عند غيرى أو فى المكتبات إن أراد .

هذا وذكر الأستاذ محمد كامل حته فى مقال له بمجلة الثقافة أن والد الأستاذ العريان كان من علماء الأزهر وكان من خطباء الثورة العرابية وشعرائها ، فلما انهارت الثورة اضطر الشيخ أن يفر من القاهرة فيقطع الطريق إلى طنطا على قدميه ، وظل مختفيا حتى شمله العفو .

ومن المحتمل أن يكون – فى أثناء تخفيه – قد لجأ إلى الأذكار وضرب الدفوف . . وقد فعل أكثر من ذلك الرجل العظيم عبد الله نديم فى أثناء تنكره وهربه من السلطة الاستعمارية . .

وإنى لا أرى فى ذلك أى عيب يلحق بالأستاذ العريان ، على خلاف النظرة الضيقة التى يمثلها صنيع صديقنا الراحل عبد الله حبيب . بل على العكس من ذلك أرى أن بنوة الإنسان لأب قليل الشأن يضفى عليه سمات العصامية التى تحسب له لا عليه .

محمد مصطفى حمام

كنت أولا أعرفه من بعيد ، أسمع عنه كثيراً ، وألقاه قليلا ، حتى جاءت ليلة ويالها من ليلة !

كنا نحتفل لتأبين الشاعر على محمود طه فى مسقط رأسه مدينة المنصورة . وبعد انتهاء التأبين ركبنا مع الأستاذ الزيات فى سيارته إلى قصره القريب من المدينة ، وركب معنا محمد مصطفى حمام ، دعاه الزيات ليكون معنا خامسا لأربعتنا الزيات وكامل حبيب وأنور المعداوى وأنا . انضغطنا فى السيارة التى يقودها قائدها غير صاحبها ، فلم يكن الزيات يقود ، لأنه كان ضعيف البصر ويظهر أن الأديب يكون غالباً ضعيف البصر من كثرة القراءة .

جعل حمام يحدثنا حديثاً عجيباً من كل لون ، ولكنه أفاض فى الحديث عن جماعة من الظرفاء ، يعد هو منهم وهم من أشباهه ، وإن كان يمتاز بسعة الاطلاع

وخصوبة الموهبة .

تميز أولئك الظرفاء بطابع خاص أو كان لكل منهم طابعه الخاص ، ولكنهم يجتمعون فى صفة مشتركة هى غزو مجالس الكبراء وكسب مودة هؤلاء وعطفهم بما يأتون من الملح وما يحسنون من الدعابة وأساليب التهريج . منهم من مات كالشيخ عبد الحميد النحاس ، ومنهم من لا يزال على قيد الحياة وقتئذ . ولاشك أن حياة هؤلاء جديرة بالكتابة عنها ، فهم يمثلون لوناً يشبه ما ذخرت به كتب الأدب من أمثال « الأغانى » و« العقد الفريد» وبعض كتب الجاحظ ، وللكتابة عن هؤلاء المعاصرين قيمة خاصة من حيث ملابساتهم العصرية واتصالاتهم برجالات العصر الحديث وما يأتون بذلك من مفارقات وطرائف فى الأدب والسياسة والاجتماع . وقد أحسن الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف بالكتابة عن طائفة منهم فى كتاب أصدره من سنوات ، أذكر أن فى عنوانه كلمة « صعاليك » .

أشرنا على حمام أن يكتب هذه الذكريات ويجمعها فى كتاب أو كتب ، فقال : يخيل إلىّ أن الحديث عنهم لا يحلو إلا شفوياً . والواقع أن حمام يتقمص الشخصية التى يتحدث عنها ويضيف إليها نفسه . . فإذا حكى أن فلاناً قال فالقائل هو حمام . . وإن رأى ما يقصه لم يحدث فى المجلس التأثير المطلوب ارتجل ما يصل به إلى ما يريد من التأثير ناسباً إياه إلى من يتحدث عنه ، فهو وضاع فنان لا يشق له غبار . . ويبدو لى أن الأديب لابد أن يكون وضاعاً ، وهل الكاتب القصصى إلا وضاعاً ؟

وكذلك كان الرواة والمؤلفون فى القديم على ما يخيل إلىّ ، فأكثر ما نقرؤه من قصصهم ونوادرهم موضوع ، لم يقصد به الكذب دائما ، وإنما قصد به الفن ، ولك أن تعتبره خيالا على نحو الواقع ، كما يكون فى الفن القصصى الحديث .

وشملت طرائف حمام التى أغرقنا فى سيلها المتدفق نوعاً من الناس تراه ظافراً

مقدماً عند الكبراء ، ولا مزية لأحدهم ظاهرة ولا كفاية تسوغ ما يلقونه من نجاح وتقدير . هذا أحدهم – كما يحكى حمام – فى مجلس رجل من رجالات الدولة ، يقول له هذا وهو يعلم أنه لا يحسن شيئا مما يطلب منه :

– أنشدنا قصيدة من شعرك .

– لست شاعراً .

– قل لنا زجلا .

– لا أقول الزجل .

– اقرأ لنا ما تيسر من القرآن الكريم .

– لست من أهل القراءة .

فيقول الرجل الكبير : إذا كنت لا تنظم الشعر ولا الزجل ولا تقرأ القرآن مع ما أنت عليه من زى علماء الدين ، فبأى حق تجلس معنا يا . . . وما بعد « يا » هو المزية التى من أجلها يجلس صاحبنا فى مثل ذلك المجلس . . إن الانفجار فى صاحبنا هذا وسيلة للتخلص من ضغوط مختلفة يشعر بها ذلك الكبير – إنه وسيلة للتسلية مثل « سبحة كهرمان » فى يد من لا يصلى !

ومن فنون حمام فى تلك الليلة أن تربع ووضع كفيه على جانبى وجهه وقرأ بصوت التجويد القرآنى فى سورة « سعد » هكذا !

« سين ، عين ، دال . . واذكر فى الكتاب سعداً إنه كان زعيما وطنياً ! » وكان صوته رخيماً منغماً كأحسن قارئ . . وعلت القهقهات عندما وصل إلى قوله فى تلك السورة : « وقال سعد يا ملز ! » و « ملز » إنجليزى معروف كانت له فى مصر مهمة ضد الآمال الوطنية .

وتلك السورة من وضعه ، كما ألف – نظماً – شكوى المؤذنين إلى وزير الأوقاف إبراهيم دسوقى أباظة باشا ، إذ اجتمع موذنو المساجد وذهب وفد منهم

لمقابلة الوزير الأديب ، وانبرى واحد منهم يقول بصوت الأذان ونغمته :

يا وزير الأوقاف نسألك الإنصاف

هكذا زعم حمام ، وكان هو يؤذن ذلك الأذان أمام الرجل الذى كان يحب أن يسمع أطايب الشعر ويطعم الشعراء أطايب الطعام . .

وما كان أسعد حمام فى تلك الليلة عندما مدت مائدة الطعام فى منتصف الليل للعشاء وفى الضحى للإفطار ، فقد حوت المائدة كثيراً من الطيبات التى تحلب لها فم حمام . كانت لذته الكبرى فى الجلوس إلى هذه الموائد . هكذا قال لى . والغريب أنه لم يكن أكولا . . كان يغازل ولا يواقع !

ومما حكاه لى أنه وبعض الشعراء كانوا فى المنزل الأباظى المشهور بموائده الشهية فى انتظار الغداء . وهجاه محمود غنيم بأبيات من الشعر ، ولم تسعفه القريحة للرد عليه ، ولكنه قال له متوعداً انتظر حتى تحضر المائدة وتجلس إليها ، وسأريك كيف يكون الهجاء !

قال لى حمام مفسراً ذاك : إن قريحته تستعصى عليه أحياناً ، ولكنها تأتى إليه طائعة فياضة على مائدة الطعام . . وخاصة إذا كانت مائدة حافلة كمائدة إبراهيم دسوقى أباظة باشا .

كان مسافراً إلى الإسكندرية - كما حكى لى - فالتقى فى القطار بصديق من أغنياء دمنهور يعرف طيبات الرزق عنده ، فلما دنا القطار من محطة دمنهور عزم عليه الرجل أن « يتفضل » فما كان منه إلا أن نزل معه وألغى تذكرة السفر إلى الإسكندرية ، وتغدى على مائدته ، ثم استأنف السفر بتذكرة أخرى ثمنها كان يغذيه ويعشيه فى أفخر مطاعم الإسكندرية ، ولكنها الرغبة فى الطعام ، بل الداء المتمكن منه : أن يأكل على مائدة من موائد الأغنياء مهما يكن الثمن . . مجرد أن يأكل ، ولا يهم أن يتناول كثيراً أو قليلا !

هكذا كان محمد مصطفى حمام صفحة مفتوحة ، صريحاً لا يخفى شيئاً على صديق ، وكل من يعرفه صديق ، فهو لا ينسى من يعرفه ولو بعد حين ، وهو صافى النفس ودود طيب القلب ، لا يخاصم ولا يعادى . . ولا يهمه إلا أن يحقق غرضا ولو خاصم نفسه . . وقد خاصم نفسه فعلا حينما كان محرراً فى جريدة « الأساس » التى تهاجم الوفد ، وفى جريدة وفدية . كان فى هذه الجريدة الوفدية قد كتب مقالا وفدياً ، وهو خارج من إدارة الجريدة سئل : إلى أين ؟ قال : إلى « الأساس » كى أرد على نفسى بمقال فيها ! وهذا ، وذاك بدون توقيع .

أشعر أن الحديث عن محمد مصطفى حمام الأديب الذى كان يحيا حياة فوضوية مسلماً نفسه إلى موجها المتلاطم ، ترفعه موجة وتخفضه أخرى ، دون أن يأسى فى حالة الخفض ، أو يبقى على شىء فى حالة الرفع - أشعر أن الحديث عن هذا الإنسان العجيب لا يخضع لنسق أو نهج معين ، فلابد أن يأتى مثل ما كان هو كيفما اتفق . . والناموس فى الأدب كما عرفناه أن الشكل يتبع المضمون ، والمضمون هنا مشتت منثور ، فلا مناص أن يكون الشكل أشتاتاً من الكلام لا يربطها رابط عدا أنها تتحدث عن حمام وما جرى له .

فى فترة ما اتصل حمام بالزعيم مصطفى النحاس ، وهذا رئيس للوزارة ، ولاحظ الناس « تطوراً » طرأ على لغة الزعيم فى خطبه ، فقد صارت مثل خطب مكرم عبيد فى السجع خاصة ، كأنه أراد أن يحاكيه لما رأى حسن وقع خطبه - خطب مكرم - فى الأسماع . ويقال إن مكرم عبيد كان يكتب الخطب أولا ثم يحفظها ، وليس معقولا أن يأتى الارتجال على هذا المستوى من البلاغة والبيان ! . .

وكذلك فعل النحاس ، غير أن الذى كان يكتب له الخطب شخص آخر هو محمد مصطفى حمام . . وظهرت علامات النعمة على حمام ، وحمام « لا تبل فى فمه

فولة » فتحدث بذلك فى أحد المجالس فبلغ حديثه مصطفى النحاس ، فغضب عليه وأقصاه ، وعادت الخطب إلى سيرتها الأولى بدون سجع . .

كانت لحمام قدرة عجيبة على المحاكاة فى كل شيء ، وخاصة فى التأليف ، إذ كان ينشئ الكلام نثراً أو شعراً على غرار ما يريد ، فأكثر ما يحكيه فى المجالس منسوباً إلى آخرين كان من مقوله لا من منقوله . وأذكر أن كنا مرة فى دار الإذاعة لنلقى أحاديث فى مجلة هوائية بالبرنامج الثانى كان يشرف عليها ويقدمها أخونا فاروق خورشيد . وجلست إلى جوار حمام ، فقال لى إنه أعد حديثاً عن أمر مجهول فى حياة شوقى أمير الشعراء ، يتضمن شعراً لم يعرفه أحد . . وإن عنوان الحديث « حبيبات شوقى » وأسمعنى أبياتاً زاعماً أن شوقى تغزل بها فى أولئك الحبيبات ، فدهشت أولا كيف أن أحداً من دارسى شوقى لم يتوصل إلى ذلك . ولكنى – بعد قليل من التأمل والتفكير – قلت لحمام :

– اسمع ، ليس هذا من قول شوقى ، إنه قول حمام !

فقال لى بصراحته المعهودة :

– اسكت حتى أذيع الحديث وأقبض الأجر . . وبعد ذلك قل ما شئت إن شئت !

كان إنتاج حمام فى الأدب مبعثراً ، فى الصحف والمجلات ، إلى جانب ما يفيض به فى المجالس وعلى الموائد ، لم يؤلف كتاباً مطبوعاً ، ولم ينشر ديواناً سوى ديوان أخير لا أذكر عنوانه ، دفع إلىّ نسخة منه وهو فرح به ، ولحظت أنه مطبوع على ورق فاخر ومحلى برسوم باهرة ، ولما فحصته أدركت السبب . . إنه مدائح فى الرجل السعودى « الشربتلى » المشهور بالغنى والجود ، وقد احتضنه هذا الرجل الطيب الواسع الثراء بعد أن انقضى عصر الباشوات فى مصر . أغدق عليه فى مصر وآواه فى السعودية . حكى لى حمام أنه لما كان يؤدى فريضة الحج ، وذهب إلى

المدينة كى يزور قبر الرسول عليه السلام ، أعد قصيدة فى مدح الرسول وأراد أن يلقيها هناك ، فاعترضه الشرطى ومنعه من الدخول ، فهجم على القبر الشريف واستشعر قوة خارقة - كما قال لى - فدفع الشرطى بهذه القوة ونحاه ودخل وألقى القصيدة بصوت جهورى وهو لا يشعر إلا أنه فى الحضرة الشريفة ، ثم خرج سليماً معافى لم يمسسه أحد .

كان صادقاً ولاشك فى مدح الشربتلى ، لأنه عبر عن إحسانه إليه ورعايته إياه بصدق وإخلاص ولم يسقط السقطة التى سقطها خالد الجرنوسى ومحمد فهمى الشاعران اللذان مضيا ولا يذكرهما الآن إلا القليل ، كانا شاعرين مجيدين وجديرين بالذكر والخلود ، ولكن فعلتهما هزت شخصيتيهما ذلك أنه نشرت قصيدة لأحدهما بجريدة « المصرى » وأخرى للآخر فى جريدة « الأخبار » كانت القصيدتان فى مدح رجل سعودى غنى قد يكون الشربتلى أو غيره ، ونشرتا بعناية فائقة ، من حيث الحروف الكبيرة والتشكيل كما كان فى الكتب المدرسية . . وعرف أنهما نشرتا بالأجر الكبير كإعلان . . وأنه دخل جيب كل من الشاعرين مبلغ كبير آخر . . أين هما الآن ؟ وأين ما أخذاه ؟ لم يبق - كما قال حاتم الطائى - إلا الأحاديث والذكر .

أعتقد أن فوضى حياة حمام كانت تشمل الناحية الأسرية فقد كان يتزوج أكثر من واحدة ، وربما جمع بين أربع ، ولم يكن من الصعب عليه أن يقوم بأمرهن ويوسع على أولاده مجال الإنفاق لو نظم أموره ، ولكن أموره لم تكن تنتظم فهو دائما بين غنى وفقر ، وإن اغتنى لا يستبقى ، وإن افتقر لا يعلم إلا الله ماذا يفعل . . وكانت خاتمة حياته فى المملكة العربية السعودية ، حيث أقام هناك مكرماً ميسوراً . لقيته مرة فى السودان ، فسألته ، فقال إنه هنا - أى هناك - لعدة أيام يتعاقد فيها مع الحكومة السعودية على عمل ، إذ قدم من السعودية إلى السودان كى يكون

خارج حدود المملكة لأن قانونها يقضى بعدم جواز التعاقد مع أجنبى داخل البلاد . وكانت هذه آخر مرة أراه فيها ، وسمعت بعد ذلك نبأ وفاته فى القطر الشقيق . ثم رأيت بعد ابنة له : فتاة مثقفة لطيفة فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، كانت عندما رأيتها فى رفقتنا بلبنان حيث كان يجتمع مؤتمر كتاب آسيا وأفريقيا فى أواخر الستينات ، تلك الأيام التى كنا نرى فيها الصديق العزيز يوسف السباعى ونشهد أفضاله على الجميع .

واتت حمام النزعة الدينية فى أواخر حياته ، وعبر عن مشاعره الدينية بشعر صادق جميل ، وأروعه قصيدة نظمها فى المدينة المنورة وهى التى هجم بها على الحرم النبوى حيث تخطى حاجز الشرطة وألقاه ، ومنها قوله :

آنست نور الله جل جلاله ومشيت حيث مشى النبى وآله
وبلغت أحسن ما تمنى مسلم وأعز ما يسمو إليه خياله

وقد قرأت مقال الدكتور فتحى محمد أبو عيسى الذى نشر . بمجلة « الثقافة » — أغسطس ١٩٧٧ بعنوان « محمد مصطفى حمام شاعراً » ولحظت أنه يهتم فيه بإبراز الناحية الدينية فى شعر حمام ، وقال « ولهذا — أى لشبهة بعده عن ساحة الدين — ركزنا على الشعر الدينى فى هذا المقال ، ليكون منطلقاً لنا إلى الحديث عن شعر حمام من ناحية ولندفع به هذا الوهم الذى يطارد كثيرا من المتفكهين الظرفاء فى الشعر العربى . . إلخ » .

يبدو لى أن الدكتور فتحى محمد أبو عيسى شاب لم ير حمام أو لم يعاشره وخاصة فى شبابه ، ولو فعل لعرف أن حمام كان فعلا من المتفكهين الظرفاء وكان نواسى المنزع ، ثم عدل عما يسميه الكاتب « وهما » بعد أن بلغ فيه ما بلغ ، ثم تاب كما فعل صاحبه أبو نواس القائل :

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصارة كل ذاك أثام

وإذا كان أبو نواس قد أثرت عنه أبيات قليلة فى هذه التوبة ، فإن صاحبنا حمام أفاض بتلك القصائد التى تبلغ مستوى شعر الفحول ، لا من ناحية المضمون فقط ، بل كذلك من ناحية الشعر كفن ، وهى مع هذا لا تصلح منطلقا إلى الحديث عن شعر حمام على وجه عام .

استلهمت أنا من حمام قصة « بنت عمى راقصة » التى نشرت بالرسالة ثم فى مجموعتى « الست علية » وهى الوحيدة التى نشرت لى فى الرسالة ، وما كتبته غيرها من قصص نشرت فى المجموعات كان بعد ذلك وبعد احتجاب الرسالة ونشر فى صحف ومجلات أخرى .

ومعنى ذلك الاستلهام أنى تأثرت بحكاية وقعت لحمام وحكاها لى وهو فى غاية التأثر . قال : أتعلم أن لى ابنة عم راقصة ؟ «كان ذلك من نحو ثلاثين سنة ، كان فى أواخر الأربعينات ، وأغلب الظن أنه كان فى سنة ١٩٤٩ » ، أذكر ذلك لأنى كنت طلبت منه أن نجلس جلسة طويلة فى إحدى القهوات لكى يحدثنى بما يعلم عن عبد الحميد الديب الذى كتبت عنه فى الرسالة بعنوان « صانع البؤس » وحدثنى ببعض ما تضمنه ذلك المقال ، وأسندت روايته إليه . بعد أن فرغنا من حديث الديب حكى لى عن ابنة عمه تلك ، وأنه لم يكن يعرفها من قبل ، وأنها اتصلت به تليفونيا وعرفته بنفسها ، فلم ينكرها بل رحب بها ولقيها وقدمها إلى من يعرف فى نقابة المهن التمثيلية لكى تنال عضوية النقابة . . إلخ .

جعلت اسمه فى القصة « محمد مختار البرجى » وهو اسم قريب من الاسم الأصلى ، وغيرت فى الوقائع التغيير الذى اقتضاه الفن القصصى ، ولا أدرى أقرأ القصة أم لم يقرأها ، ولا ماذا كان مصير علاقته بابنة عمه ، فلم نتحدث عن شىء من ذلك بعد ذلك .

كان حمام مشهورا بالاقتراض الذى لا يرد . . والواقع أن هذا كنت أسمعه

فقط ، أعنى لم يحدث معى ، ربما لأنه ذكى يفطن إلى أن مثلى ليس معه ما يطلبه . . والواقع كذلك أن الخط البيانى لحالته المالية كان يتكون من مرتفعات عالية ومنخفضات . . لم يكن للمال عنده أية قيمة غير أن يبذره ، ولم يكن تحصيله يتعذر عليه ، ولكن ما أسرع ما ينفقه . .

التقينا مرة عند الأستاذ إبراهيم دسوقى بك (لم يكن نال الباشوية بعد) فى منزله الذى كان قريبا من شارع خيرت بالجزء الراقى النظيف من حى السيدة زينب . وذلك فى ندوة أدبية صحبت إليها صديقى الشاعر الكبير العزيز أحمد الزين ، وما كان لى إذ ذاك شأن أدبى يؤهلنى لحضور مثل تلك الندوة ، إنما كنت أرافق الزين ، كان يتأبط ذراعى أو أتأبط ذراعه بحيث لا تبدو فى صورة كفيف ومن يقوده . . هكذا كان يحب الشاعر الضرير ، وكان يكره – إذا كان سائراً وحده – أن يقصد إليه أحد المارة ليساعده فى الطريق ، فعصاه تهديه ، وحدسه كفيل بأن يجنبه أخطار الطريق .

رأيت هناك إذ ذاك الولد النجيب « ثروت » التلميذ بالمدرسة الابتدائية ، وكان حمام يناقشه فى بعض مسائل اللغة العربية كأنه يعطيه درساً ، ولكن الولد يتفلت من هذا المستوى الصغير ويحاول أن يصعد إلى مستوى الندوة بالإصغاء إلى ما يدور فيها .

المهم أننا عند انصرافنا فى منتصف الليل صحبنا حمام إلى منزل الزين فى بركة الفيل ، وكان الطريق شبه خال ، لم يكن السكان قد تكاثفوا كما هم الآن ، وكان القمر ساطعاً يغالب مصابيح الشارع . قطعنا الطريق فى أكثر من ساعة وهو لا يحتاج إلى أكثر من عشرين دقيقة ، لأننا كنا نتوقف فى بعضه كى نستمع إلى حديث حمام وطرائفه .

وبعد أن أوصلنا الزين إلى منزله صافحت حمام مسرعاً . . أخشى أن يطلب

منى قرضاً ، وما فى جيبى ما يقرض . .

لو أن أحاديث حمام فى المجالس والندوات دونت لاجتمع منها مؤلف أو مؤلفات ذات طلاوة وقيمة ، كان كتابا متنقلا شفوياً لم يدون . . يستمع إليه المستمع مستفيداً دون أن يعانى جهد القراءة ، مستأنساً بروحه العذبة ، مستمتعاً بإلقائه ونبراته . ولو أنك بذلت له ما استطعت فما يساوى ما تبذله شيئا مما أعطاك من متعة وفائدة .

على أحمد با كثير

لم أكن قرأت له ولا رأيته عندما عرضت مسرحيته (سر الحاكم بأمر الله) على المسرح ، ولكنى سمعت بعض الأصدقاء يتحدثون عنه بحب وتقدير ، قالوا : شاب عربى حضرمى جاء إلى مصر وتخرج فى كلية من جامعتها وأقام فيها . هو إذن من « حضر موت » التى عرفناها من قديم فى النحو على أنها « مركب مزجى » ممنوع من الصرف .

وتعلمنا الجغرافيا دون أن نعرف أين تقع ، فقد كانوا يقولون لنا عن كل بلاد الدنيا ما عدا بلاد شبه الجزيرة العربية والشمال الأفريقى ، كان الاستعمار مثل الأب الذى افترق عن زوجته ويقول لابنه : إن أمه ماتت ، يريد أن يصرفه عنها ، ولكن الابن لا يقتنع ، وكلما كبر يسأل ويبحث حتى يعثر عليها . . . ونحن كذلك ، أخيراً عرفنا مكان « حضر موت » وأمثالها على الخريطة ، ومجلتنا « الرسالة » تذهب إليها .

كنت أكتب فى الرسالة - فيما أكتب - نقداً مسرحيًّا ، وأهتم اهتماماً خاصًّا بالمسرحيات التى يؤلفها أدباء مثل توفيق الحكيم ومحمود تيمور ثم على أحمد باكثير ، وكان هناك مسرحيات أخرى كثيرة يؤلفها أو « يلطشها » من المسرحيات الأجنبية آخرون ، لا يزالون أو لا يزال أمثالهم يفعل ، حتى الآن . . .

أخرجها زكى طليمات أحسن إخراج . ومثل يوسف وهبى البطل الأول فيها وهو « الحاكم بأمر الله » وأظن ذلك كان فى فترة تعاون فيها عملاقا المسرح : زكى طليمات ويوسف وهبى ، ولكن يوسف وهبى كعادته يكاد يطغى على كل شىء فيما يقدم ، فالإعلانات فى الصحف وعلى الجدران يملؤها اسمه بحروف كبيرة ، وهناك فى زاوية أو ركن من بعض الإعلانات يكتب اسم المؤلف « على أحمد باكثير » بحروف صغيرة . . كأنه لص سرق مسرحية أجنبية وينبغى التستر عليه . . .

غاظنى ذلك ، فقلت إن يوسف وهبى يأكل لحم باكثير ويرمى عظامه مثل الغول فى حكايات الشاطر حسن وست الحسن والجمال . .

ثم عرفت باكثير ، وعرفت فيه فضائل إنسان أعظم من أدبه وإن كان أدبه عظيماً . لم يكن يكذب قط ، ولم يكن يمقت شيئاً كما يمقت الكذب . وكان جواداً لا يشعر أنه كريم ، بل يرى الجود أمراً عاديًّا لا يستحق الالتفات إليه . . . الصديق على متولى صلاح الذى لا ينجو أحد - حيا أو ميتاً - من هجوم لسانه يرطب هذا اللسان إذا جاء ذكر باكثير ويتغنى بإنسانيته وفضائله ، هذا اللسان الهجاء يلتوى عندما يذكر باكثير ، يصير إلى العكس مادحاً ! ولعلى متولى صلاح فضل يذكر فيشكر ، ذاكرنى عن باكثير ، وأمدنى ببعض ما عرف عنه وهو يود أن يؤلف فيه كتاباً .

تلك سمات بدوية جاء بها على أحمد باكثير من شبه الجزيرة العربية وظلت به لم تبرحه . وكذلك لم يكن « ملمعاً » يحسن اللقاء ، بل على العكس تراه يكاد يكون

مغلقا ، وتعجب كيف ينتج ذلك الإنتاج الأدبى ، ثم إذا عاشرته وبلوته وجدت معدناً نفيساً وإن بدا غير براق . . .

* * *

جاء باكثير إلى القاهرة سنة ١٩٣٤ ، كان يحفظ القرآن الكريم وكثيراً من أشعار العرب ، أزهرى لم « يحاور » فى الأزهر . . إنما نشأ هكذا فى « حضرموت » جاء إلى مصر « شيخاً » صغيراً ، يمده أهله بما يحتاج إليه من مال ، واتجه فى تعلمه اتجاها مختلفاً عما نشأ فيه ، تعلم اللغة الإنجليزية ودخل امتحان الثانوية العامة وحصل على الشهادة التى أهلته لدخول جامعة فؤاد الأول (كما كانت تسمى إذ ذاك) . وكثير من الناس لا يعلم أن باكثير تخرج فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب ودرس « بتشديد الراء » اللغة الإنجليزية بالمدارس الثانوية وذلك لغلبة الصبغة العربية فى كتابته وجزالة أسلوبه وسلامة لغته ، مما يدل على سعة اطلاعه فى الأدب العربى والثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامى ، الذى استمد منه كثيراً من موضوعات مسرحياته وقصصه ، وظل مثابراً على التحصيل العربى إلى جانب تضلعه فى اللغة الإنجليزية ، يضاف إلى ذلك شخصيته التى كانت تشبه شخصية شيخ معمم تطربش . . .

لم يكن تحصيل باكثير فى الثقافة العربية الإسلامية علماً فقط ، بل كان عقيدة غرست فى أعماقه منذ الصغر فامتزجت بمشاعره واستولت على أفكاره العروبة ولغتها وشعرها ، كان فى أول حياته الأدبية مشغوفاً بقول الشعر ، ولكن التأليف المسرحى أخذه أخذاً قويًّا ، فلم يدع للشعر منه إلا الإلمام القليل .

كان أستاذ الأدب الإنجليزى بالكلية يحاضر عن « شكسبير » فأشاد بتعبيره الشعرى ، وتأتى اللغة الإنجليزية لهذا التعبير وتحررها من القيود فى الشعر . وانشغل فكر الطالب على أحمد باكثير بقضية كان الرائد العربى فى حسمها ، تلك هى

مطاوعة الأوزان الشعرية للحوار المسرحى ، وخطر له أن يجرب اللغة العربية فى وزن شعرى أطلق عليه اسم «الشعر المرسل المطلق» وذلك أولا فى ترجمة مسرحية شكسبير «روميو وجولييت» وثانياً فى تأليف مسرحية «إخناتون ونفرتيتى» وقد اتخذها قالباً للتعبير عن أزمة عاطفية مر بها تتعلق بفتاة فى بلده الأول كان يحبها ولم يوفق فى الزواج بها .

كان من رأى باكثير الذى حدثنى به أن أى تراث قديم لبلد عربى لا يتعارض مع فكرة العروبة ، وأن مسألة «الفرعونية» لا تشجب إلا عندما يراد بها محاربة العروبة .

وكان باكثير - بذلك الشكل الشعرى - من الرواد الأول لما سمى بعد ذلك بنحو عشرين سنة «الشعر الحر» ولم يمض باكثير فى هذه التجربة لأن الجو الأدبى إذ ذاك لم يكن مهيئاً لها فلم تلق تأييداً إلا من كاتب واحد ، هو إبراهيم عبد القادر المازنى ، إذ كتب مقدمة للمسرحية وأعرب فيها عن تقديره للتعبير الشعرى الذى لا يكاد قارئه يدرك أنه شعر موزون ، وهذا ما لحظناه بعد ذلك فى المسرحيات الشعرية التى نسجت على نول الشعر الحر ، مثل مسرحيات عبد الرحمن الشرقاوى .

واتجه باكثير - بكل ثقله - إلى التأليف المسرحى ، كتبه أولا بالشعر ، ثم أعرض عن الشعر غنائيًا ومسرحيًا ، أما القصائد الغنائية فكان يلم بها قليلاً . وأما الشعر المسرحى فقد رأى أو أخذ بالرأى القائل إن المسرح يجب أن ينطلق بالنثر ولا يتقيد بالنظم .

ومع اهتمامه الكلى بالتأليف للمسرح كتب - إلى جانب مسرحياته الكثيرة - خمس روايات منها «واإسلاماه» التى صور فيها الكفاح العربى ضد التتار . ولم يكن يكتب نثرا غير القصص مسرحيًا وروائيًا ، فلم يكتب المقال قط ، ولم

يرد على أحد ، ولم يناقش فى غير المسرحيات ، كما فعل فى مسرحية « حبل الغسيل » التى سيأتى ذكرها .

لم يكن باكثير مصريًّا ، أى لم ينشأ فى بيئة مصرية فيتشرب روحها ويتكون لديه « الحس الاجتماعى » الذى يأبى بعض الألفاظ ، وهذا الحس لابد منه فى التأليف المسرحى بصفة خاصة ، لذلك كان يشتمل حواره أحياناً على كلمات تعد نابية بالنسبة للذوق المحلى المصرى ، فيقول عن متولى صلاح إنه سمع فى حوار مسرحية « مسمار جحا » قول أحد الممثلين للآخر : يا ابن الفاعلة فأبدى – على متولى – اعتراضه للأستاذ زكى طليمات مخرج المسرحية فقال هذا : آه . . فاتتنى هذه ! واتفق على أن يقال بدلا من ذلك : يا ابن التى . . . ولا تذكر صلة الموصول .

وقد لقيت مسرحية « مسمار جحا » نجاحا كبيراً فى عرضها على المسرح ، لأنها ترمز إلى الاحتلال البريطانى الذى أعطى الاستقلال الشكلى لمصر ، وجعل يتذرع للتدخل فى شؤونها كما يتذرع بائع البيت فى المسرحية للدخول لرؤية المسمار الذى اشترط البائع أن يبقى مدقوقاً فى مكانه على أن يدخل إليه فيتحقق من وجوده متى أراد !

وفى تلك الأثناء – وكنت ممن كتب عن المسرحية – دعيت إلى ندوة « مع النقاد » فى البرنامج الثانى للإذاعة ، لمناقشتها . وهناك رأيت عجباً . . . رأيت الزملاء فى الندوة من لون يضرب إلى الحمرة . . انهالوا على المسرحية ومؤلفها بكل نقيصة . . التفت منذ ذلك الحين إلى أن باكثير يتعرض لضراوة القوم ، لأنه يتمسك بقيم لا يعترفون بها ، لأنه – وهذا مجلبة للحسد – ناجح تلقى مسرحياته إقبالا كبيراً لاتناله مسرحيات من يؤلف منهم مسرحيات .

وأذكر أنى قلت فى تلك الندوة ، معارضاً ثائراً على ذلك التحامل : إن باكثير

هو الثانى بعد توفيق الحكيم ، الذى ألف مسرحيات تعرض من صميم الأدب ، فتقرأ كإنتاج أدبى يتم ولو لم تعرض على المسرح .

واشتدت تلك الضراوة ، وأحكمت حلقاتها عليه ، وسدت المسالك فى وجه إنتاجه عندما افتقد أولئك القوم عرش الهيمنة على وسائل الاتصال بالجمهور وخاصة المسارح ، وكان ذلك كما يعلم الجميع فى الستينيات من هذا القرن ، وما أشد ما لقيت وعانت بلادنا فى تلك الستينيات !

ومن حسن الحظ أن أفلتت منهم - فى فترة ما - بعض الوسائل مثل مجلة « الرسالة » فى عهدها الثانى الذى أصدرتها فيه وزارة الثقافة ، ثم حاربوها لما رأوا الحرب معلنة عليهم فيها ، وجدوا فى حربها حتى توقفت .

كنت مشرفاً على المجلة ، وعلمت أن باكثير يكتب مسرحيته « حبل الغسيل » فأخذتها منه ونشرتها مسلسلة ، كان موضوعها ينصب على رءوس الشيوعيين انصباباً لا هوادة فيه . والحق أنها كانت عالية الصوت ، فأضعف هذا فنيتها ، ولما تردد أن باكثير مضطهدة مسرحياته مغلقة أمامها أبواب المسرح ، انتهز القوم الظالمون هذه الفرصة : فرصة ضعف المسرحية ورضوا أن تعرض ، وفى الوقت نفسه عملوا على إخراجها وتمثيلها بسوء ، ثم انهالوا عليها نقداً وتجريحاً ، هم وأبواقهم فى الصحف والمجلات . ولم يستمر عرضها طويلاً ، كأنهم قالوا : هذا هو باكثير الذى تتهموننا بإقفال الأبواب فى وجهه . . .

والواقع أن باكثير كان فى تلك الفترة فى حالة نفسية سيئة ، فاض به السخط حتى لجأ إلى الشتم السافر فى المسرحية ، وضحك المشتوم ساخراً . .

ومات باكثير على أثر ذلك .

يبدو لى أنه وقع فى مثل ما وقع فيه « سيبويه » إمام النحويين بالبصرة عندما عن له أن يرحل إلى بلاط الخليفة فى بغداد ، فبرز له الكوفيون المرابطون هناك ،

وعقدوا العزم على دحر هذا « البصرى » المتقحم . . . وأجريت مناقشة علمية أمام الخليفة هارون الرشيد شوشوا عليه فيها حتى أظهروه بمظهر المخطئ . . ورفعوا أصواتهم هاتفين : هذا هو البصرى الذى جاء يناقش الكوفيين فى مقر الخلافة . . وعاد المسكين أدراجه خائب المسعى و . . مات !

من المؤسف أن تكون تلك خاتمة مجد عظيم فى التأليف المسرحى تمثل فى كثير من الروائع ، أكثرها عرض على المسارح ، وبعضها لم يعرض .

* * *

اتخذ باكثير مادته – فى معظم المسرحيات والروايات – من التاريخ العربى والإسلامى ، وجعل هذه المادة مهاداً لقضايا معاصرة قومية وإنسانية ، وكانت العروبة هى الشغل الأول الشاغل لوجدانه وفكره ، من حيث الأصالة الأدبية واللغوية ، ومن حيث المضمون القومى .

وقد شغلته – باعتبار خاص – قضية فلسطين ، فسخر بالصهيونية ودعاتها وفند دعواها الباطلة ، وأضحك الناس على مهازلهم وسخفهم ، وهو يشعر بالألم والمرارة . كان يرى – كما قال لى – أن الكاتب المتأثر بالفاجعة يكون أقدر على التعبير الفكاهى (الكوميدى) من حيث تصوير مرتكبى الفواجع فى صور هزلية مضحكة . وتم له ذلك فى عدة مسرحيات نالت نجاحاً كبيراً ، منها « شيلوك الجديد » و « شعب الله المختار » و « إله إسرائيل » .

وكتب عن الكفاح الوطنى المصرى منذ الاحتلال الإنجليزى مسرحيتى « مسمار جحا » و « إمبراطورية فى المزاد » .

وله إلى ذلك مسرحيات اجتماعية منها « الدنيا فوضى » و « جلفدان هانم » .

وقد شارك فى الاستيحاء العالمى لمسرحية سوفوكليس « أوديب » فعرضها عرضاً جديداً على أساس جديد غير الأساس الذى بناها عليه المؤلف اليونانى القديم ، فى

الشكل وفى الموضوع ، إذ ساق - باكثير - أحداثها بطريقة واقعية جديدة ، وفسرها تفسيراً واقعيًا جديداً ، وجعلها فى شكل ملائم لروح العصر الحديث ، واستخدمها لمرمى خاص ، فقد كتبها عقب حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ فى وقت ساد فيه الفساد وغلب اليأس على النفوس ، وقد رأى فى القصة مجالا للتنفيس وتصوير ما يريده بعيداً عن المواجهة والمجابهة والمصادرة ، فصور فيها شعباً بائساً يؤمن بالمعبد ، ومن المعبد بؤسه ونكبته ، وللمعبد من أوقاته ومن أملاكه ما يشغله عن الاهتمام ببؤس الشعب ، بل إن الأموال المكدسة فيه إنما هى من أقوات الشعب ، سلبت منه لتجمع فى أيدى الكهنة الذين يرون مصالحهم فى تمويه الحقائق على الشعب وتعليق مشاعره وأفكاره بأوهام تبعده عن إدراك الحقائق . ومثل ذلك كان جارياً فى مجتمعنا العربى مع اختلاف المرموز به والمرموز إليه .

* * *

كان على أحمد باكثير أول أديب يحصل على منحة التفرغ من وزارة الثقافة سنة ١٩٦١ وكانت لمدة سنتين وضع فيهما « ملحمة عمر » وهى مسرحية طويلة طويلة . . . تقع فى عشرين فصلاً يصور فيها عهد عمر بن الخطاب ، ولو مثلت تشغل نحو ثمانى ساعات ، وكان يأمل أن تمثل فى عدة حلقات وعدة حفلات ، ولكن ذلك لم يتحقق ، فلم تمثل وقد طبعت فى عدة مجلدات ، ولما سألته لماذا أسماها « ملحمة » لم يجبنى إجابة مقنعة ، فالملحمة تكون عادة شعراً وهى نثر ، وأعتقد أنه سماها « ملحمة » لطولها ، ولا أرى الطول كافياً للتسمية ، والملحمة شىء والمسرحية شىء آخر مهما طالت . إن صنيعه فيها يشبه - من بعض الوجوه - صنيع توفيق الحكيم فى كتابه « محمد » فإن كلا منهما وضع التاريخ فى صياغة مسرحية .

لم يكن على أحمد باكثير يهتم كثيراً بالمادة ، كان الخلق والأدب الرفيعان أكثر همه . فى البدء ألف قصة « سلامة » ودفعها إلى منتج سينمائى فأعطاه عشرين جنيها

دون كتابة عقد ، وأخرج الفيلم ، ومثلته وغنت فيه أم كلثوم ، واشتهر الفيلم وانتشر فقال لباكثير أصحابه : كيف ترضى بذلك الثمن وأنت ترى هذا الشأن الكبير للفيلم ؟ ارفع قضية . فأبى أن يدخل فى مقاضاة ، واكتفى بسروره من نجاح الفيلم وانتشاره .

ولكنه مع ذلك ظل يعانى طوال حياته من طغيان المقدمين فى المسارح ، وغلبة العناصر الأخرى على المؤلف واعتباره آخر من يقدم . . . فالمخرج هو كل شىء كما يقولون ، والممثل اللامع هو الذى يكتب اسمه بالحروف الكبيرة ، أما المؤلف فهو إن لم يكن ذا جاه كصحفى مثلاً فإن اسمه هناك فى ركن لا يكاد يرى بحروف صغيرة صغيرة . . وربما لا يذكر . . .

وكان باكثير موظفاً بوزارة الثقافة نقل إليها من التدريس بعد أن قضى فيه أربعة عشر عاما . وكان عمله فى الوزارة أولا فى « مصلحة الفنون » التى أنشئت بها فى الخمسينات برياسة الأستاذ يحيى حقى ، وكنت أراه هناك هو ونجيب محفوظ فى غرفة واحدة . حكى نجيب محفوظ – وهو يتعجب من الناس الذين لا يفهمون – أن جاء إليه فى ذلك الوقت رجل مسرحى . وطلب منه أن يؤلف له مسرحية ، فاعتذر نجيب بأنه لا يكتب مسرحيات وإن فنه الذى قصر عليه قلمه هو الرواية والقصة المكتوبتان ، وأشار له إلى الجالس معهما إلى مكتبه فى الحجرة على أحمد باكثير ، فهو المختص بالمسرحية ، ولكن الرجل انصرف دون أن يكلم باكثير . . كان يريد اسم نجيب محفوظ ، الاسم فقط على أى شىء !

لم يكن كل منهما – نجيب وباكثير – يكتب المقال – وظل باكثير كذلك ، ولكن نجيب خرج إلى كتابة المقال وخاصة فى السياسة بجريدة الأهرام . ولعله شعر أخيراً بأنه ليعى فنه ، فهجره وقصر أمره على الكتابة القصصية يبث فيها مايريد أن يقوله إن فى السياسة أوغيرها ، وإن كان يبدو فى قصصه الأخيرة بعيداً عن السياسة .

ولأن باكثير لم يعبأ بالناحية المادية وقصر همه على الأدب كان شأنه فى الوظيفة صغيراً وفى الأدب كبيراً ، يشبه فى ذلك مصطفى صادق الرافعى ، ويشبهها فى ذلك أيضاً كثير من الأدباء مثل محمود البدوى وعلى أدهم وحسن كامل الصيرفى ، وهؤلاء يعانون لذلك من قلة « المعاش » كما تعانى أسرة باكثير من بعده . يقول يحيى حقى : يا ناس . . أنا ليس لى غير المعاش . . والعلاج يتطلب منى كثيراً ويكاد يرهقنى ، بل هو يرهقنى فعلاً . ويتساءل توفيق الحكيم : لماذا لا يكون لنا علاج ورعاية مثل القضاة ؟ وتكاد جلسات لجنة القصة – بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب – تكاد تكون مجتمعة للشكوى من سوء الحال وحال الأدباء بصفة خاصة . . . والمواصلات يا أستاذ ! القليل منهم له سيارة يحمل فيها الكَل « بفتح الكاف » والضعيف من زملائه ، فيحميهم بهذا من انتظار ما لا يقف من « تكسيات » وما لا مكان لقدم فيه من « الأتوبيسات » وهم على ذلك يثابون من المجلس بقروش معدودات ، تمسك بها « الضرائب » وهى لا تلحق بالهاربين منها والهاربات ، ذوى الدخل غير المحدود والذوات !

ونعود ، من هذا الذى يجرنا إليه أن الشىء بالشىء يذكر ، إلى باكثير . كان من عاداته الغريبة أن يؤثر الأقلام الرديئة فى الكتابة ، كان يستعمل قلم حبر يتوقف فى الطريق كالحمار البليد . . يؤثره لأنه يتيح له – بتوقفه عن الكتابة – أن يفكر قبل أن يسطر تفكيراً عميقاً فى اللحظات التى يجف فيها المداد على سنه . . يقول على متولى إنه يعرف قلمه الأسود الذى لم يفارقه قط !

وذلك أمر عجيب . . فأنا مثلاً إذا وقع حظى فى قلم مثل ذاك فإنه يكدر صفوى ، بل يثيرنى إلى درجة أن أحطمه ولا أكتب .

ليلة وفاة على أحمد باكثير (فى نوفمبر سنة ١٩٦٩) كان علىّ – من قبل جمعية الأدباء – أن أتصل به لدعوته إلى رحلة داخلية من الرحلات التى كانت تنظمها

الجمعية لأعضائها .

اتصلت به تليفونياً فى منزله ، فحادثنى محادثة تدل على منتهى صحته ، واعتذر لأن زوجته مريضة وتحتاج إليه فى إجراء لعله « عملية » وفى اليوم التالى فاضت روحه . . لم يترك ذرية من صلبه كان يرعى ابنتين لزوجه كأنهما ابنتاه ، لم تعرفا أباً سواه ، نعم الأب كان ، كما كان نعم الصديق ، ونعمت ذكراه . . .

يوسف السباعى

أمعقول أن يكتب ضابط صغير فى الجيش هذه القصص التى تنشر فى مجلة « مسامرات الجيب » فتجذب إليها الأنظار ؟

هكذا كنا نتساءل فى الأربعينات من هذا القرن ، ثم نقول وكأننا وقفنا على السر الدفين .

آه . . إنه ابن محمد السباعى ، لابد أن أباه قد ترك هذه القصص دون نشر ، فجاء هو ينشرها مدعياً أنها من قلمه :

كان محمد السباعى كاتباً أديباً خفيف الظل فى شخصيته وفى كتابته ، ولكن هذه القصص شىء آخر يختلف جداً عن قصصه سواء فى مترجماته أومنشآته .

ويعود العناد الغبى فى نفوسنا يفرض نفسه الحاسدة ويقول : إنها ليست بنصها كما كتبها المرحوم ، وإنما ابنه يغير فيها ويحور .

هكذا بدأ يوسف السباعى يكتب وهو متهم يجنى عليه أمران : الأول بنوته لأديب كبير والثانى أنه ضابط ، وما للضباط والأدب !

ومع مرور الزمن انزاحت عنه التهمة الأولى ثم بقى أنه ضابط ، يضاف إلى هذا : السرعة الفائقة التى يكتب بها فينتج هذا السيل المنهمر من القصص .

وعين الحسود ترمقه . . إنه لايزحف ، بل يعدو عدواً كالحصان الذى يركبه فى سلاح الفرسان الذى هو ضابط فيه . . فهذه الفرقة القومية ، الفرقة الحكومية الرسمية . . تمثل له مسرحية اسمها « أم رتيبة » فى مسرح حديقة الأزبكية العريق . .

اللهم غفرانك . . هل كنت أنا أنظر بتلك العين : عين الحسود ، حين شاهدت تلك المسرحية ، ثم كتبت عنها فى أخبار اليوم ؟ حملت عليها حملة ساخرة شملت المؤلف وفرقة الدولة التى يجب أن ترتفع عن هذه المساخر فتعرض هذه المسرحية الموغلة فى الهزل الفارغ ويمثل البطل فيها « فؤاد شفيق » ذلك الممثل العملاق الذى لايليق به أن يبدو بهذا المنظر المزرى .

ولكن لا ، إن لى وجهة نظر ، فالفن لابد أن يعطى شيئا غير مجرد الضحك ، ومسرحية أم رتيبة ، مضحكة ، ولكنها لاتعطى شيئا ، وهى كذلك مضحكة بطريقة مبتذلة .

ثم رأيت فى مقدمة لإحدى المجموعات القصصية المتوالية التى يصدرها كاتبنا المنطلق بأقصى سرعة — رأيته يسخر مما كتب عنه فى أخبار اليوم ويقول إنه لن يلتفت إلى شىء من ذلك ولايشغل به باله ، إيثارا للإنتاج وعدم تبديد الطاقة فى المناقشات . وحسناً فعل ، فقد كانت موالاة الإنتاج والتوفر عليه أجدى .

ويوسف السباعى ينطبق عليه مايقوله « سومرست موم » : « قليل من الإدراك السليم ، وقليل من التسامح ، وقليل من المرح ، وسوف تدهش عندما ترى كيف استطعت أن تريح نفسك على ظهر هذا الكوكب » .

كان يتصف بالخلال الثلاث ، ويغلبها الإدراك السليم ، وهى من أسرار طاقته الكبيرة وإنتاجه الغزير والاقتدار العجيب على مختلف الأعمال ، ويضاف إلى الخلال الثلاث تنظيم الوقت بحيث يتسع عنده لكل شىء حتى المرح .

وكان من تسامحه أن لقينى بعد ذلك ، أى بعد ما كتبته عنه ، وكأن لم يكن شىء ، وتوطدت العلاقة بيننا عند إصدار مجلة « الرسالة الجديدة » ، إذ رحب بى واستقبلنى فى نادى القصة الذى اتخذ مقرا للمجلة وكان فى ميدان التحرير ، كنت بصحبة المرحوم عبد الحميد جودة السحار ويؤلمنى أشد الألم أن يصبح أكثر أصحابنا من « المرحومين » قال لى السحار إنه تحدث إلى يوسف فى شأن استقطاب بعض الأقلام التى كانت تكتب فى الرسالة القديمة بأن ذكرنى له ، وهو حريص على ذلك .

ألف رحمة عليك يا يوسف . . بدأنا العمل فى الرسالة الجديدة وكأننا أصدقاء من زمن بعيد .

اقترح على أن أكتب « غرام الأدباء » فصادف الاقتراح ارتياحا من نفسى إبان الشباب وتفتح النفس لمثل ذلك . ولما جمعت تلك الفصول كانت أول كتاب يصدر لى .

سافرت إلى السودان فى فترة صدور الرسالة الجديدة وقضيت هناك ثلاث سنين كنت أراسل فيها يوسف السباعى وأبعث إليه المقالات . مرة شكرت له موقفاً ، فرد على يقول لا داعى للشكر فأنا الآن فى موقع يتيح لى أن أؤدى شيئا ، وغدا قد تكون أنت فى مثل هذا الموقع . . حكيت هذا أخيرا لبعض الأصدقاء ونحن نذكر محاسن الفقيد العزيز فقال طاهر أبو فاشا : هذا معنى حسن ولكنه ليس إنسانياً ! يقصد أن العمل الإنسانى يعمل لذاته دون النظر إلى مجازاة فى مستقبل ، ولكن يوسف كان يريد أن يشعرنى بالأهمية ، لا أن أحفظ له الجميل وأرده له فيما بعد . وكان هذا

دأبه مع أصحابه ، ما اتصل به أحد إلا حمد صحبته ، لم يكن يهاجم إلا من بعيد . . إلا ممن لايعرفه .

كان أكثر من يهاجمونه يفعلون ذلك تظاهراً بالبطولة وأنهم لايهمهم مركزه . . وكان بعض العارفين بفضله يحجمون عن ترطيب اللسان أوالقلم بذكره ، تحرجا من أن يعد ذلك من قبيل التزلف .

لأنه كان ضابطاً فى الجيش ، وجاءت ثورة الجيش فوضعته فى موضع القيادة الأدبية وأتاحت له بعض السلطة فى هذا المجال ، لهذا كان ينظر إليه ظلماً وإجحافاً على أن جدارته مستمدة من الثورة العسكرية وأنه واحد من ضباط كثيرين تركوا الجيش وأخذوا مراكز مدنية رئيسية .

والواقع أن يوسف السباعى بلغ مابلغ بأدبه وصفاته الإنسانية وقدرته العجيبة على تسيير الأمور بحكمة ولباقة ، كانت الخلال الثلاث عدته : الإدراك السليم ، والتسامح ، والمرح . ولك أن تضيف إليها الذوق السليم .

لم يكن التسامح عنده موصوفاً بالقليل ، بل كان كثيراً إلى الحد الذى حدثنا عنه عبد الرحمن الشرقاوى فى مقال بالأهرام عقب حادث الاغتيال فى قبرص ، قال الشرقاوى إن يوسف السباعى كان ينفق من ماله الخاص على عائلات الشيوعيين المعتقلين . . ومن هؤلاء من يهاجمه . . .

كاذ ذلك التسامح – فى بعض صوره – مطعناً على يوسف نفسه – فإنه سرعان ماينسى مواقف الخصومة ويقرب إليه الخصوم ويحسن إليهم ، بل يؤثرهم على أصدقائه القدامى . . ومن هنا كان هؤلاء يتهمونه بالتفريط فى حقهم وإيثار الجدد عليهم ، كسباً لهم ، أما القدماء فهم مكسوبون جاهزون !

كنت ترى « الولد من دول » يهاجم يوسف السباعى ، فى الكتابة وفى المجالس ، فما يتصل به ويتعرف عليه حتى ينقلب إلى صديق حميم .

ولقد أفرط فى ذلك حتى قدم من لايستحق على من يستحق ، واستجاب للمتزلفين فأفاض عليهم . كان عيبه فى ذلك أن نظرته محصورة فى « الركب » حتى لاترى من يتخلف عنه .

وأنا فى السودان ترامى إلىّ أن « الرسالة الجديدة » ركبها قوم آخرون بقيادة أحمد حمروش ومعه محمود أمين العالم وصالح مرسى وراجى عنايت وغيرهم . كانوا يصدرون مجلة « الفجر » عن دار الجمهورية التى تصدر « الرسالة الجديدة » ورأت الدار أن تختصر العبئين فى عبء واحد . . فألغت الأولى وضمت هيئة تحريرها إلى هيئة تحرير الثانية . . وظل يوسف السباعى رئيس التحرير يشرف برحابة صدره على الجميع ، ويكسب بتسامحه الجميع .

رجعت إلى مصر بعد إنهاء عملى بالسودان فى ذلك الإبان ، ولأمر ما انحسر بعض أعضاء الفجر عن الرسالة الجديدة وإن ظل أكثرهم فيها يقبضون مرتباتهم الكبيرة من ميزانيتها وهى مجلة شهرية العمل فيها محدود ، ولكن الرزق ممدود . .

رأى يوسف السباعى أن يضع تنظيماً جديداً للمجلة ، فيه بعض التجاهل لعناصر الفجر . . جمعنا : محمد عبد الحليم عبد الله ، وفوزى العنتيل ، وأنا . أسند إلى الأول الناحية القصصية ومنها باب جديد يتضمن « قصة لاتستحق النشر » مع بيان الأسباب وأسند إلى الثانى الشعر ، وكانت بقية المواد من نصيبى ، من مقالات ونقد ، أذكر أنى اصطدمت بصالح مرسى . إذ كان يكتب باباً إخباريا وأعملت القلم فيه بالحذف والتعديل ، فصرخ واستصرخ مدير التحرير أحمد حمروش ، وشرح كل منا وجهة نظره فوفق بيننا بطريقة لبقة تدل على شخصيته اللطيفة المحببة .

وفى هذه الفترة عرفت هناك بعض الشبان الأدباء الذين يشقون طريقهم على استحياء منهم موسى صبرى كاتب القصة القصيرة والمحرر بالمجلة ، نال من نحو ثلاث

سنين جائزة الدولة التشجيعية فى الرواية ، وشاب آخر له ظروف غريبة فى نشأته وحياته ثم عمله بالمجلة كان « ساعيا » يعمل عمل السعاة ، وهو فى الوقت نفسه أديب قصصى يجتهد فى تكميل نفسه وإعدادها لشىء آخر ، تحقق له هذا الشىء أو أول درجة فى سلمه ، إذ شملته رعاية الرجل السليم الإدراك المفطور على الخير : يوسف السباعى ، فنقله إلى كاتب فى إدارة المجلة ، وإن لم يكن كاتب تحرير . . فقد أجلسه إلى مكتب يفحص الرسائل الواردة ويوزعها . . ثم نشرت الرسالة الجديدة قصصاً قصيرة لمحمد سالم (وهذا اسمه) الذى نشأ فى « إصلاحية الأحداث » . . وصار هذا « الحدث » كاتبا قصصيًّا مرموقاً . . لاأدرى لماذا هو مختف الآن عن الساحة الأدبية ؟

كانت تلك هى طريقة يوسف السباعى كرئيس تحرير ، يوزع مسئولية الأقسام على من يثق بهم ، ويعطى كلا منهم سلطة رئيس التحرير فى قسمه . ثم يجتمع وإياهم فى اجتماعات دورية يبدى لهم ويبدون له ، ويبدى كل منهم للآخر ، وتسير السفينة باسم الله مجراها ومرساها . . عملت معه بمقتضى هذه الطريقة فى مجلة أخرى اسمها « الحياة » كان يصدرها المجلس الأعلى لرعاية الشباب مسندا رياسة تحريرها إلى يوسف السباعى ، وممن بدءوا النشر الأدبى فى هذه المجلة الشاب المجند البائس « حسن محسب » .

أصبحت الرسالة الجديدة ذات هيئتين للتحرير ، وبرغم اختلاف الاتجاه بين الهيئتين سارت المجلة سيراً حسناً ، ولم يحدث أى تنافر ، بفضل ماأتصف به يوسف السباعى من التسامح والاقتدار العجيب على تسيير الأمور .

وازداد نجاح المجلة أدبيًّا ، ولكن « إدارة الحسابات » فى دار الجمهورية قالت : لا ، إن المجلة تخسر وهى بهذه الخسارة عبء كبير لاتتحمله الدار . . والواقع أن الخسران المادى جاء من تحميل ميزانية المجلة عبء المرتبات والأجور ،

وهى مجلة شهرية لايحتاج العمل فيها إلى هذه الكثرة من « الموظفين » فيها كبار وصغار .

ماتت الرسالة الجديدة وفقدتها الحركة الأدبية ، كما فقدت من قبل الرسالة القديمة ، حقاً ، لم تحل الجديدة محل القديمة وخاصة فى الوطن العربى الكبير ، ولكنها كانت خيراً من عدمها . .

ثمة سؤال تقف إزاءه علامة الاستفهام « ؟ » منتصبة تريد الجواب . . ماذا فعل يوسف السباعى للحركة الأدبية ؟ تتفرع من هذا السؤال أسئلة أخرى . . هل كان من المستطاع أن تقوم حياة أدبية فى مصر بدون يوسف السباعى فى الفترة الزمنية التى تبدأ بقيام الثورة سنة ١٩٥٢ وتنتهى باغتياله فى قبرص ١٩٧٨ ؟ وهل كان يمكن أن تكون هناك حركة أدبية وقد انحسرت كل الجهود والكفايات الأدبية عن الساحة الأدبية وآثرت البعد عن « وجع الدماغ » .

لقد سار يوسف السباعى بمجلة الرسالة الجديدة شوطاً لابأس به ، وفى الوقت نفسه أنشأ نادى القصة ثم جمعية الأدباء ، ثم جمع فى هذه الجمعية الجمعيات الأدبية الأخرى ، ثم أنشأ وهو وزير الثقافة - اتحاد الكتاب - وفى هذه الهيئات كلها تناحرت عناصر مختلفة ينكر كل منها الآخر ، ولكن يوسف السباعى صهرها جميعاً فى بوتقة الإدراك السليم والتسامح والمرح .

وكان قد عمل على إنشاء المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ولاينكر مافعله هذا المجلس للحركة الثقافية إلا جاحد ، وليس ماشابه من تقصير أوإبطاء أوإهمال فى بعض الأعمال إلامايكون عادة من الهيئات الحكومية ، على أنه برغم ذلك فعل الكثير بفضل يوسف السباعى .

سواء بالجهد الشخصى أو عن طريق تلك الهيئات بما فيها الصحافة ووزارة الثقافة واتحاد كتاب آسيا وأفريقيا ، جمع الأدباء والفنانين الكبار ، وحقق

الاستفادة بهم ، وييسر لهم ما كان يستعصى من أمرهم ، وعمل على أن تمنحهم الدولة ماهم جديرون به وأتاح الفرصة للشباب فى مختلف الميادين ، فبرز منهم من برز حتى بلغ مابلغ .

حقًّا كان هناك من يسيرون فى الركاب وينالون مالايستحقون . . وكان هؤلاء يحجبون الضوء ، عمن ينبغى أن يصل إليهم . . ولكن متى كان كل شىء فى هذه الحياة متيناً لايخر منه الماء . . ؟

الأمر المؤكد أنه لم يعاد يوسف السباعى أحد عرفه ، لأنه لم يكن يمن على أحد ممن يحسن إليهم ، فينتهز بعض اللئام الفرصة للتخلص من جزاء الإحسان . . كان يشعر الإنسان بأنه أهل لما ناله ، وأنه لافضل له فى هذا الذى ناله . كان ينسى كل خير فعله . إذ يرى أنه عادى لايليق أن يأتى غيره .

ولو أن الذين غدروا به وقتلوه فى قبرص عرفوه مااستطاعوا أن يفعلوا . . مهما كان ماانطوت عليه نفوسهم من شر . . ومهما كانت الحوافز على ما أتوه من شر . . كان الإنسان يستيقظ فى أعماقهم فلايستطيعون أن يكونوا غير إنسانيين إزاء ذلك الإنسان !

كل من هاجم يوسف السباعى أو أساء إليه لم يكن يعرفه .

كان من « عبقريته » فى التعامل مع الناس والاحتكاك بهم أن يقنع المخطئ بخطئه بطريقة مرحة طويلة البال . . وعندما يرى المتخاصمين يحتدون فى الخصومة يستطيع بإدراكه السليم أن يريهم تفاهة مايختصمون من أجله .

كان لدى يوسف السباعى طاقة غير عادية ، فهو إلى جانب اضطلاعه بأعمال إدارية متعددة ، وإلى جانب اهتمامه بالخير العام للأدباء والفنانين ، لاينى عن الإنتاج الأدبى ، ولم يسترح منه ولم يشغله عنه شىء قط ، وبعض ما كان يزاول ويتحمل من تبعات يصرخ منه الكثير من الأدباء ويتخذونه ذريعة للكف عن

الإنتاج وسبباً إلى الكسل الأدبى .

وقد أكثر من الإنتاج الأدبى إكثاراً أخذ عليه وقيل : لو تمهل وأجاد ! وكتبت مرة أنقد هذا الزعم ، فقلت إن هذه هى طبيعته ، ولابد أن تأخذ مجراها ، ولن يجدى شيئاً تمهله ، وشبهته بالقطار السريع الذى لايمشى أحسن إن أبطأ ؟

لقد ملأ الدنيا وشغل الناس ، بما لم يفعله أديب عربى فى قديم أوحديث . . والغريب أنه شغل الناس ماعدا النقاد ، فلم يظفر منهم بمايتناسب مع إنتاجه ، ونظروا إلى ماكتب تقديراً له على أنه ملق . . فمكانته من السلطة جنت عليه من هذه الناحية ، وقيل لمن وقف منه موقف الخصومة الأدبية إنه – أى الواقف – بطل عنيد ، وهو فى الحقيقة ليس بطلا وإن كان عنيداً .

قبل حادث اغتياله بأيام قرأت فى مجلة الثقافة مقالا جيداً ، ومن قبله مقالات جيدة لمحمد عبد الهادى محمود فى تقويم أدب يوسف السباعى . وأرجو أن يستمر هذا الكاتب الناقد البصير على هذا المنوال حتى يجبر ذلك النقص ويكفر عن النقاد بعض السيئات . .

* * *

لقد خلا يوسف السباعى مكانه ، بعد أن ملأ الدنيا بأعماله ، وإنتاجه الأدبى ، خلا مكانه فى الحركة الأدبية وكان أكبر محرك فيها ، ولاأقول بأن أحداً لايسد مكانه ، كما يقولون فى مثل هذه الحالة ، فالذى تتجه إليه الأنظار ليشغل المكان لن يشغل الامكانه هو إن كان شخصية ولن يشغل أى مكان إن لم يكن شخصية .

هكذا الحياة ، يذهب الراحل بعد أن يؤدى دوره ويجيء القادم ليؤدى دوراً آخر ، ولايتكرر الدور ، ومن العبث أن نتحسر على الذاهب لأن مكانه خال ، فقد ذهب ومعه المكان .

تخليت عن مكانى إلى جوار صديقى يوسف السباعى من نحو عشرة أعوام ، منذ

كنا فى مؤتمر كتاب آسيا وأفريقيا ببيروت سنة ١٩٦٨ ، لم أسافر إلى مؤتمرات بعدها ، كان هو الذى يدعونى إلى المؤتمرات .

أفزعنى أن يرانى الناس لصيقاً به . يوم أعلن عن إصدار مجلة لكتاب آسيا وأفريقيا كتب محمود السعدنى يسخر كعادته التى كانت فى مجلة « صباح الخير » ويقول : من سيكتب فى هذه المجلة ؟ فلان وفلان وعباس خضر . . ووصفنى بأنى « كاتب محنط » . سامحه الله .

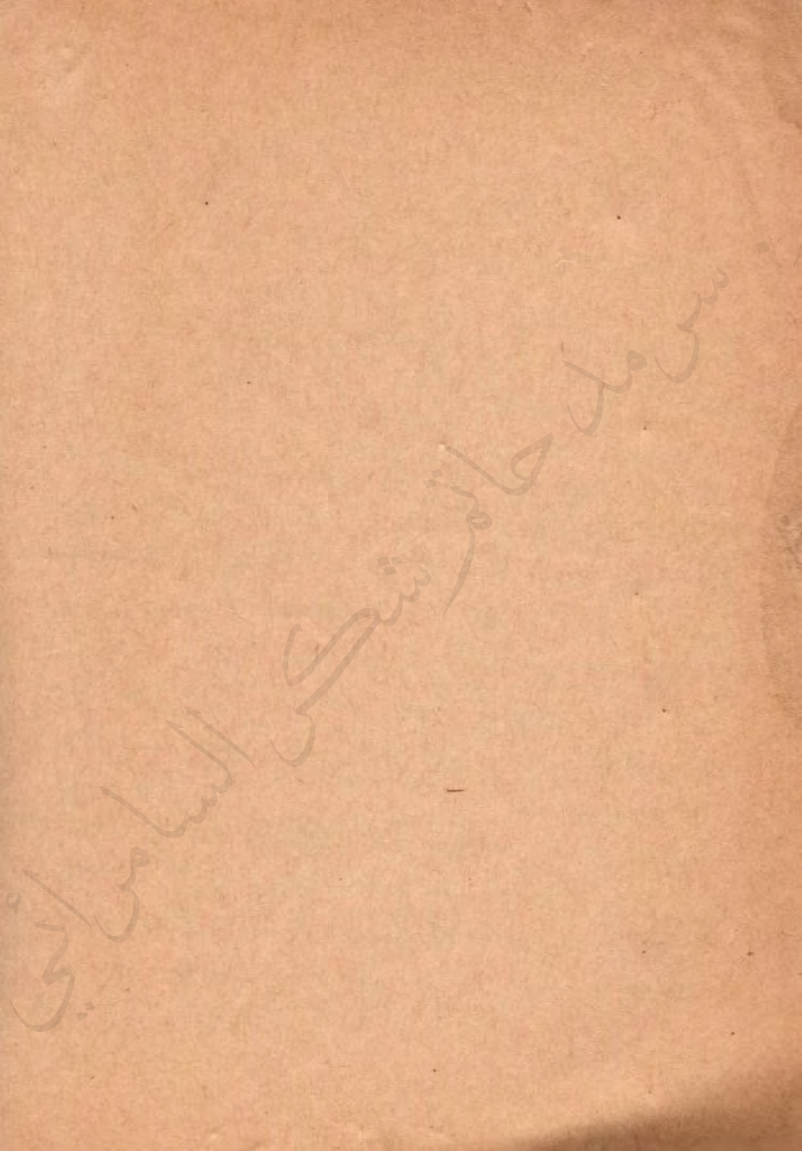
وعندما أسندت رياسة تحرير مجلة « آخر ساعة » إلى يوسف السباعى كتب إلى صديق من أدباء الإسكندرية يعرض « خدماته » فيها . . ظانًّا أنى سألازم رئيس التحرير .

وابتعدت عن مجلة آسيا وأفريقيا وعن « آخر ساعة » وعن يوسف السباعى . وحدث لى حادث كسرت فيه رجلى ، وشعرت أن مكان يوسف السباعى فى مواساتى خال . . ربما لأنه لم يعلم فهو كثير المشاغل وأنا بعيد عنه ، قلت فى نفسى : إنى بعيد عن عينيه فلابد أن أكون بعيداً عن قلبه .

ووقع هو فى أزمات صحية ، وأجريت له عمليات طبية ، فبادلته الإهمال . . وأنا - بطبعى المعيب - لست مجاملا ، ولست - كما يقولون - اجتماعياً ولم أتخلق بالخلق الإسلامى فأصل من قطعنى ، ولعلى أفعل ، أى أصل من يقطعنى إذا لم أره أعلى منى شأناً .

وكنا نلتقى أحياناً فى اجتماعات مجلس إدارة اتحاد الكتاب ، فنتبادل تحية عابرة ، كأن لم يكن شىء من ود قديم أوجفوة جديدة . .

وأنصف نفسى إذ كنت أقول فى نفسى : إن ماشربته من وده فيما مضى يكفى لبقية حياتى ، وقد ذهب هو ، كما ذهب أكثر الرفاق ، وبقيت أنا شبه معمر . . أجرع كؤوس ودهم القديم ، وأشتاق إلى رى لن أناله . .



الفهرس

رقم الإيداع	١٩٨٣/٢١٦٣
الترقيم الدولى ٩٧٧-٠٢-٠٣٦٢-٩	ISBN

١/٧٩/٢٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



ولقد كان ذا ثم
لم يشهد منها